

پیشروان اسلام



مجله

سید اسماعیل محمد

كتاب

أربعة . .

يهتمون إلى الله .

بقلم

سيد اسماعيل محمد

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

شهر مايو

١٩٣٣ م — ١٣٥٢ هـ

منطبعة مطبعة بيضاء

الأهداء

نور على نور . . .

هو الله . . .

« بنوره اهتديت واليه أرفع هذا الكتاب »

سيد اسماعيل محمد

مقدمة

جميل جدا أن يصدر الكتاب في أبدع ثوب : طباعة وتجليدا !
واجمل منه أن يباع الكتاب بثمن أقل من أن يصيب من الجيوب
مقتلا فيشتريه غالبية المثقفين الكرام !

والأجمل من هذا جميعا أن يقرأ الكتاب فيعود بأكبر الفائدة
على موضوعه أولا ثم على قارئه ثانيا ثم ببعض ما يعوض المؤلف جهده
ووقته وماله ثالثا ! فليس أشق في عالم الفكر من وضع كتاب وإصداره
خصوصا في مصر حيث لا ناشر . ومن استسهل الأمر أو ظن أنى
أبالغ فيه فنصيحتي له هي أن يجرب ، سيما ولست الآن في معرض
تعداد الصعوبات الجمة التي أحاطت بهذا الكتاب وغيره ، بل اكتفى
بحمد الله وشكره على أن وفقني بأى حال الى إصداره ، وبعد ذلك الحمد
والشكر لم يبق الا أن أقول كلمة تتعلق بموضوع الكتاب والدوافع
الى ابرازه

فقد صدر في ديسمبر سنة ١٩٣٢ كتاب للعالم الانجليزى الكبير
« برنارد شو » سماه « مخاطر الفتاة الزنجية في بحثها عن الله » وطبع
هذا الكتاب حتى شهر فبراير سنة ١٩٣٣ تسع طبعات دل بها على
مقدار المؤلفه من مكانة بين زعماء الفكر كما دل على ما للكتاب من

قيمة في ذاته وفي موضوعه . ولم يكتف الكتاب بكثرة طبعاته وكثرة قراءته . بل أثار ضجة في عالم الفكر هناك كان من مظاهرها أن أصدر « شارلس هيربرت ما كسويل » وهو من قادة الفكر هناك أيضا - كتابه الذي سماه « مخاطرات الفتاة البيضاء في بحثها عن الله » توخى ما كسويل فيه أن يرد على كتاب شو ردا لم يخرج عن كونه تصحيحا لبعض المسائل الدينية كما يفهمها رجال الكتب المقدسة عندهم . ولم يعدم ما كسويل انصارا قرظوا كتابه في الكتاب نفسه . ولا مجلات أدبيه ناصرته ودعت الناس بحماس الى قراءة كتابه

وانك لتري أن كلا من الكتابين صدر في أسلوب قصة شيقة بلغة سهلة لا تكمد الذهن ، فكانا دليلين على اتجاه حركة الفكر هناك . ومظهرين من مظاهر التنافس الشديد بين العلم والدين في البلاد المتعدية . ولا غرو فإن النشاط العقلي في هذه البلاد يتجه الآن الى ناحيتين إن لم تكونا متضادتين فهما على الأقل أقرب الى التطاحن وليس أدل على تلك الحالة من قول شو نفسه في كلمته عن كتابه الأخير قال « نحن الآن في أزمة (فكريه) يحتفظ فيها فريق من الناس بالكتاب المقدس محجوبا بين طيات السحب باسم الدين ، حين يحاول الفريق الآخر أن يتخلص كلية من الكتاب المقدس باسم العلم »

وما كان لي أن أتعرض لتلك الحالة ولا لهذين الكتابين لولا أن هذا جميعا كان السبب المباشر الذي حدا بي الى وضع هذا الكتاب

فقد استلقت نظري منذ زمن بعيد أنه ما من مجلة أدبية إنجليزية محترمة شهرية كانت أو أسبوعية إلا وضمت بين دفتيها مقالا دينيا أو مقالا علميا يتعرض للاديان أو قصة تناصر أحد الرائيين أو نقدا أو عرضا لكتاب في أحد الرائيين وهكذا نشطت الحركة الأدبية في أوروبا وغيرها من بلاد المدينة الى تغذية كل فريق على حدة : يتنافس كل فريق في طرق إبراز افكاره وعقائده محاولا هدم الفريق الآخر بالأساليب التي يرونها أدخل على النفس وأقرب الى الذهن لتعم الفائدة أو تكاد ، فلم يعدم الجميع من القصص الصغيرة سلاحا ومن القصص الطويلة عوناً ، ومن الروايات المسرحية عضداً ، ومن الشعر قوة .

والحق انه كان لابد من هذه المنافسة الشديدة وهذا النشاط الجبار وسط زوبعة المدينة الجارفة . وكان الدين أحوج ما يكون الى قوى متضافرة تنهض به ، والى عقول كبيرة تناصره ، لتخرج به من الممصة سالماً أو لتنقذه من التهلكة أو الامتهان . وسرعان ما تنهت بلاد المدينة الى هذا كله منذ قرنين أو أكثر فنهض رجال الدين يعملون وينشطون وكانت أكبر مظاهر عملهم ونشاطهم جمعيات التبشير الواسعة النطاق التي نسمع عنها كل يوم والتي تزداد سطوة وقوة كل يوم ، وهي تحاول إقامة الدين بكل الطرق الممكنة تبذل في ذلك المال والجهد والوقت بسخاء غريب . ولم تكن حاجة الدين الى كل تلك الجهود تبذل ، والى كل تلك الأموال تصرف ، لم تكن هذه الحاجة عبثاً ولا لهوا بل هي

ألزم للأنسان في هذا الوقت الفاجر منه في أى وقت آخر فهي إذن حاجة ماسة يستلزمها وجود المدينيات على اختلاف أنواعها وأشكالها لأنه ندر أن تعنى مدينة من المدينيات بقواعد خلقية سليمة تنهل الروح من مناهلها وتكتسب النفس من أسوارها مناعة ضد سائر الرذائل . ولنا من التاريخ أمثلة كثيرة ناطقة تثبت هذا الكلام .

ولما برزغت شمس مدينتنا الحديثة التي قامت على الحرية الشخصية وحقوق الفرد ، توقع الناس أن تكون قد عملت بما سبقها من المدينيات وأسباب انحلالها . لكن سرعان ما جرفنا تيارها الذي سيطرت عليه كل قوات الهدم التي ترى الأمور خلال منظار من الشهوات البهيمية المطلقة والمتع النفسية الماجنة فهي كما قال الاستاذ المازني في كتابه « ابراهيم الكاتب » أن ليس للمدينة ارتباط وثيق بالانسانية والمروءة ، كما ليست لها علاقة قوية بحقوق الفرد في ظل الديمقراطية بالنظر الى استخدامها الجموع المدربة والجمهير المنظمة في الحرب السياسية والعملية . . كما لا نرى علاقة حقة للمدينة بالفضائل الجنسية إذ أن جو المدينة أصح ما يكون للرذائل الجنسية .

فليس غريبا إذن أن يعنى القوم بشئون دينهم لأن الناس في أجواء المدينيات أحوج ما يكونون الى الدين : الى الرادع المعنوي المسيطر : الى المناعة الدينية (وهي مناعة خلقية عليا) يدفعون بها شروا المدينة وآثامها . ولما رأيت هذا النشاط الذهني الديني في أوروبا

وغيرها يعيش جنباً الى جنب مع النشاط الذهني العلمي وتبدو آثاره في مؤلفاتهم وجرائدهم على اختلافها حولت نظري شطر مصر التي بدأت تهض وأظنها قطعت نحو النهوض شوطاً كبيراً ولكنه بكل أسف شوط كبير في التقاليد الاعمى لا يلبس الا ما يرضى غرائزه . واذا صوت الدين في آثارنا الأدبية خافت ضئيل لا يكاد يسمع إلا من ثلاثة أو أربعة فضلاء استطاعوا بآرائهم الحديثة أن يحببوا الناس في قراءة فصولهم الممتعة بعد أن نفر متعلمونا من الكتابات الدينية نظراً لتمسك غالبية الفقهاء بالسير على النمط القديم الممل في توألفهم ، ونظراً لآشياء أخرى لا محل لذكرها .

وانك لترى معي أن حاجتنا الآن ماسة الى الأسس الأخلاقية الدينية ، وأن هذه الأسس القويمة لابد أن يعرفها الناس عن طريق سهل محبوب . لذا كان لابد للأدب أن يساهم في حركة النشاط الديني كما كان الشره الى تغذية الدين من ناحية الأدب عظيماً . وكان من حسن حظي أن وجدت صديقاً الى شاباً مثقفاً يرى ما أراه فكنا نتداول فيما يجب اتخاذه ففكرنا كثيراً في وضع قصة أو رواية تمثيلية وقبلت فعلاً أن أجعل دائرتي تشمل القصة — صغيرها وكبيرها — أضعها كلها سنحت الفرصة ، حين وعدني هو أن يقوم بوضع الروايات التمثيلية وأرجح الظن أنه جاد في ذلك وفقه الله .

وسنحت الفرصة أمامي حين كنت أزور إحدى المكتبات

الافرنجية في اوائل شهر أبريل فوقع نظري على كتاب برنارد شو هذا وفكرت في وضع كتاب هو قصة طويلة ردا على كتابه على أن أترجم كتابه وأجمع الكتابين في كتاب واحد . وفعلنا بدأت لكن شيئا جديدا حدث بعد بضعة أيام لما رأيت كتاب ما كسويل ردا على برنارد شو . ولما فكرت ثانيا وجدت أني لو أصدرت الكتب الثلاثة معا في مجلد واحد لكان تحديا للأزمة ! ولكانت مسئولية ترجمة كتابين ونشرهما ، أمام الامتيازات الأجنبية وحقوق المؤلفين !

وأخيرا رأيت أن أجعل من كتاب شو هيكل الكتابي وأدخل الأحاديث التي تلزمني للرد عليها في قصتي دون أن يختل المعنى أو يضطرب سير القصة مع تمييز هذه الأحاديث بعلامات خاصة يستدل بها على أنها مترجمة من كتاب شو . فنخرج بذلك بفائدتين هامتين أولاهما أن جمعت فائدة الكتابين في مجلد واحد دون الإخلال بأحدهما ، وثانيتهما أن لم تعد هناك حاجة الى شراء كتاب شو إذ قد يكون بين القراء من لا يعرف الإنجليزية . وهكذا ينال موضوع الكتاب من وراء هذا أكبر الرواج ، فيأتي بالفائدة المرجوة كما يكون مظهرا ولو بسيطاً من مظاهر المقاطعة !

بقي أن أقول كلمة عن طبيعة القصة فاني عمدت الى جعل بطلتها ريفية ولي كل العذر في ذلك إذ لم اجد بين فتياتنا المتعلقات بالقاهرة من تعنى كثيرا بشئون دينها ومعدرة أيها الاتحاد النسائي كما عمدت

فى اكثر القصص الى الحوار أحطته بستر أدبى شفاف كذلك عمدت الى الخيال المطلق فى بعض الأجزاء يكون الخيال فيها فترات متقطعة لراحة الفكر ، من عناء المناقشات الذهنية وزدت أن توخيت الحقيقة فى وصف جزء من ريف مصر وصحرائها ، لعل أحبيهما الى أعيان الصعيد فلا يهربون من مواطن أرزاقهم الى القاهرة الخليفة لكل هذا وأكثر منه تضمنه ورق جيد ، وطباعة نظيفة متقنة ، وتجليد أظن أنه لم يسبقنا اليه كتاب فى مصر بمثل هذا الثمن .

وهاهو الكتاب بين يديك حكما بينى وبينك فان ناصرتى عفوت عن خصمى ، وإن غدرت بى لم أقبل حكمه لأنه جهاد . ومتى كان الجهاد قاضيا فى يوم من الايام ؟ ولئن ضحكك على هذا الخداع فلا تسرف ولئن اتهمتنى بالسخف فرفقا فليس أحب الى من ارضاء نفسى أولا — إن لم يصب هذا الارضاء بعضهم بسوء — ثم إرضاء القراء أجمعين لأنهم ضحكوا على الأقل بستة قروش مأزومة هى كثيرة بالنسبة لهم ولكنها لا تكاد تغطى المصاريف بالنسبة لى

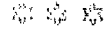
وفى النهاية أحمد الله كثيرا كما أرجو ان اكون عند حسن ظن قرأتى بى هداانا الله الى سواء القصد

سير اسماعيل محمد

٦ مايو سنة ١٩٣٣

مصادر الكتاب

- (١) القرآن الكريم
 - (٢) تفسير الخازن للقرآن
 - (٣) تفسير النسفي للقرآن
 - (٤) كتاب «مخاطرات الزنجية» لبرنارد شو
 - (٥) كتاب «مخاطرات البيضاء» لماكسويل
 - (٦) دائرة المعارف البريطانية
 - (٧) كتاب «أول الأشياء وآخرها» لويلز
-



فتاتنا الريفية هذه صورة مجسمة من الأنوثة المحتشمة . عصبت رأسها بمنديل كبير حريري مخطط بالأبيض والأسود ، فلم يظهر من شعرها سوى خصلة سوداء موجه تدلت على جبهتها كما تدلت على أذنيها خصلتان من شعرها القائم حجبتا معظم الأذنين . واجمل ما في وجهها عيناها — ولو أن بقية تقاطيعه جميلة متناسقة التركيب — وترى بريقا قويا ينبعث من العينين السوداوين ويخترق بسهامه النفوس المستكنة في الصدور يحملها تملو وتهبط تتردد كأنها في محال مغناطيسي قوى . هذان العينان بما احتاطتهما من دكة كثيفة في الرموش ولا تكاد تلمحها حول المحاجر ، ... ينبئانك عن ذكاه مفرط وطهر مفرط حتى ليخيل اليك انهما أحاطا بكل ماعرفه الانسان من علم وفن وأدب .

وقد زانت وجه ريفيتنا حمرة خفيفة مزجت ببياضه الناصع هي من أثر لفحة الشمس ، فكأنها دائمة الخجل . هذا كما ازدان وجهها ايضا بابتسامة طبيعية خفيفة لا تفارقه وقد اكسبته حياة وبشرا

وإيناسا . وكنت تلمح في ملابسها ذوقا عاليا إذ ارتدت ثوبا أزرقا فضفازا من قماش ناعم رخى ، طوقته عند الخصر بشريط بنفسجي عريض ، فجمع الثوب بين سذاجة ملابس الريف وبساطة الذوق الحديث . وبدت صاحبته مديدة القوام ناهدة الصدر غير أن الرأى لا يلمح جمال تكوينها إلا من مشيتها الخاطرة الحارة خلال هذا الثوب الفضفاض : تلك المشية التي امتازت بها قرويات مصر يحملن جرر الماء فوق رؤوسهن يتهادين بها وسط الحقول الياقة الخضرة ، التي تتخللها القنوات كالشرايين تحمل إليها الحياة من القلب الأكبر وهو النيل الجليل . وليس غير تلك المشية الجملة الحلاوة دليلا يهمس في أذنك برشاقة جسلم الفلاحات . لأن ملابسهن واسعة طويلة زرقاء غير شفافة وقد أبت ريفيتنا إلا أن تضع فوق رأسها طرحة سوداء نصف شفافة تدلت على كتفها تشبها بأخواتها الريفيات .

ولعل السر في اختيارهن اللون الأزرق لباسا ، أن اتخذنه رمزا لتلك القبة الزرقاء التي يعملن تحتها ، أو لعلن قد كشفن ان العين لا تنفذ إذا ما اطالت النظر فيه بل هي على العكس تستريح فتشمل النفس براحتها . وما دامت النفس قد استراحت واطمأنت فليس هناك

سوى الاخلاص يغمرها ، وليس هناك سوى محبة الخير توجهها ،
وليس هناك سوى النقاء والوفاء يهديانها سبيل الرشاد . وكأني
بك تتساءل

لقد سألت كثيرا من الفلاحات عن سر اختيارهن هذا اللون
فلم تستطع احداهن الاجابة الا القليلات قلن ان هذا اللون كفيل بأن
لا تظهر فيه الأوساخ والاعبرة بسرعة فهو لعملنا المحتك بالاتربة
خير واق لنا ولفقرنا» ان قلت هذا فقد صدقت ولكن أحبك على
ريفتنا التي تحبك بما قلت وبأكثر منه تفصيلا تقرن الدليل بالعلم
وتشهد التاريخ مصداقا للقول

ولا غرابة ف هذه الفتاة على قدر وافر من العلوم : نهلت من غريبها
الكثير في المدارس الانجليزية بالقاهرة ومن كثرة اطلاعها على
آداب الغرب وفلسفته ، كما نهلت من شرقيها في الدين والآداب القديمة
والحديثه عن طريق أبيها الذي كان في يوم ما أشهر أساتذة الدين
بالأزهر ، وكذلك من جم اطلاعها على كتب الآداب والفلسفة
الاسلامية ومختلف التصانيف المفيدة

كان أبوها من أعيان الصعيد وقد أكسبه احتكاكه بالمدن ذوقا

يتمشى مع المدنية الحديثة فى فضائلها ، حين كان يردعه الدين والعقل
عن مفسدها . وحيث عمل بالأزهر وكانت فتاته صبية أرسلها الى
مدرسة انجليزية محترمة حين كان يزودها هو بالدين وعلوم العرب
وعلوم مصر الحديثة لتجمع بين الثقافتين ولتهتدى بالنورين وكانت
الفتاة فطرية الذكاء ، فطرية الإيمان شغوفة بالتحصيل والمعرفة عاشت
بالقاهرة حتى بلغت سننها العشرين وكانت تسمى اجازات الصيف من
كل هذه السنين مع أبيها فى مسقط رأسهم وموطن املاكهم بمديرية
الفيوم . فلما اتفق أن أحيل أبوها إلى المعاش فى السنة التى أتمت فيها
دروسها العالية خيرها أبوها بين أن تصحبه إلى عزبتهم بالفيوم أو تبقى
مع أخيها الدكتور بالقاهرة . وهنا رأى من أبنته ما لم يكن يتوقع
فقد أجابته قائلة :

« أبت . لقد ربيتى فأحسنت وأعطيتى من الحرية ما لو أعطيت
فتاة غيرى لاتبعت هواها وضلت رشدتها بين مفسد المدنية الحديثة .
ولكنى والحمد لله صنت نفسى عن الهوى وشهوأتى عن الجموح ،
وتخذت من إرشاداتك وميولى الفطرية هديا لعقلي إلى الرشاد . وما
كنت بالتى تبهرها أضواء المدينة الخلابة ، ولا كنت بالتى تخدع

بالمظاهر الخلابية الفاتكة . . بل اختلطت لنفسى طريقا بين بهرجتها
وخيوطها الصائدة ؛ طريقا سويا لا يميل ولا ينحدر بفضل ما زودتنى
به من دين أساسه العقل والتسليم ، ومعركة أساسها تجاربك المحنكة
وخبرتك الطويلة . وبعد فلا تدهش يا أبت إن أنا فضلت أن
أصطحبك إلى قريننا الهادئة حيث وددت من زمن بعيد أن أحيي حياة
الريفات الساذجات خالصة إلى الله مخلصه له بعيدة عن كل تلك الشرور
والآثام والمغريات التي يسمونها مدنية »

فقاطعها أبوها يمتحن عزيمتها « ولكنك لا تزالين فتاة ولم تحظ
من دنيا شبابك لا بالقليل ولا بالكثير مما يحظى به من هن في سنك
بالقاهرة . . ويخيل لي أنك لم تستفيدي شيئا من ثقافة الأنجليز . . »

قالت تنلطف مع أبيها « كلا يا أبت فقد أستفدت كل شيء . وكان
خلاصة ما أستفدت أن أبعد عن مدنية المادة الحقيمة ما أستطعت ،
وإلا فكيف تتوقع أن أهوى بين أحضان مدنية لا أشر فيها لتربية
الروح وتغذية النفس ؟ إنما هي مدنية الآلات والمادة . . مدنية الشهوات
والمجون الجنوني يغذيها أدبها الفج وفلسفتها السقيمة من نتاج العقول
المريضة . وكيف تتوقع هذا منى والبشر مدفوعون إلى هاوية سحيفة
وقد أفلت منهم زمام أنفسهم وعقل عقولهم ، يسرون على غير

هدى لاسطوة لعقولهم عليهم ، بل هم لا يسرون إلا لأنهم مدفوعون
إلى السير فلا بد أن يسيروا كيفما كان ما داموا أحياء . . وقد تحكمت
فيهم شهواتهم المعتلة إلى حسد أنهم أصبحوا لا يحسون هذا التحكم ، بل
ارفضوا الحياة الغريزية عقلا ورشادا . ولست أريد أن تظننى لا أرى
في المدينة الحديثة نفعا بل هناك الكثير . ولكن ظواهر هذا الكثير
بكل أسف ضلال ؛ والضلال أقدر على خدع النفوس وأستهوائها .

قال الوالد « بوركت يا بنيتى من فتاة جريئة حكيمة . وكفى الآن
ماقلت فسيجزينى الله عن تربيتك أحسن جزاء . »

وكان اليوم من أيام الربيع المزدهر . وكان الصباح باكرا بساما
متنعشا ، طارت عصافيره فى كل فضاء ترسل من مناقيرها أعذب
الموسيقى المختلطة يحملها ندى الفجر ، ويدفع بها الى جميع النواحي كأنه
يريد أن يسمعها لجميع الكائنات : ظاهرها وخفيها . وكنت إذا اخترقت
بصرك الحقل الينع أمامك إلى حيث الترفة الساذجة الجمال ، وقع
بصرك على أشباح تتشح بالأزرق والأسود يحملان أشياء فوق
رءوسهن : هن الريفيات يحملن جررهن يملأنها من ماء بحر يوسف

العذب : هذه منتصبه حاملة جرتها في انتظار زميلة لها ، وتلك تطلب من رفيقة لها المساعدة كي ترتفع جرتها إلى رأسها ، وبالجمله فكل منهن في شغلها نشيطة باسمه بل ضاحكة تغنى أو ترسل الدعابات عفوا . وكنت تراهن كلهن صديقات أو أهلا صفت علاقتهن صفاء النسيم العليل ، وتضافرت أرواحهن تسبح في صعيد واحد من التفكير وتحيط بجدول واحد من المعرفة . لا تنافس إحداهن أختها إلا في عمل صالح ، ولا تفخر على زميلاتها إلا في ما ينفع : كأن تتباهى بأن أنجزت عملها المنزلى في وقت قصير دقائق معدودة ؛ ملأت فيها الماء وحلبت الجاموسة وأعدت إفطار زوجها . أو تزهو بأنها أخرجت اليوم زبدا أو جبنا لا مثيل لها وسوف يذقنه ليحكمهن على صحة كلامها .

ولقد يأخذك العجب أن أنت دققت النظر فوجدت ريفيتنا المثقفة واقفة بينهن وقد كشفت عن ساعد هو قطعة مخروطة من العاج زائته الحياة دما يجرى فيه ويفيض عليه حرته . ولم تكن الريفية لتقصدها هذا الكشف لولا إنها رفعت ذراعها تسند به الجرة على رأسها - لأنها لم تكن تتقن حمل الجرة دون سندها - فأنحسر كمها الواسع إلى ما تحت المرفق نتيجة لتلك الحركة . وبينما هى تمشى مع رفيقاتها قاصدات

دورهن ؛ توقفت الرفيقات يشرن ويتصاحين و يضحكن ويستغرن
وسرعان ما التفتت إلى ما يشرن عليه ، فرأت ثلاثة من الناس ، مجرد
وجودهم مع بعض مما يشير الضحك . فقد كانوا أجنيا وأجنبية وزنجية
شبه عارية . أسرعت الزميلات خجالات يضطربن في دعاة محبة
قاصدات طريقهن حين وقفت الريفية تنظر أمر هؤلاء القوم .

وما كان أشد دهشتهم حين بدأتهم تحية الصباح بالإنجليزية ، وقد
استدلت من هيئة الرجل والبيضاء أنها إنجليزيان ، فردوا التحية
ساخرين ظنا منهم أن ريفيتنا لا تفقه من الإنجليزية سوى كلمات التحية .
وراحوا يسخرون من ريفية تتطفل على اللغة لكنها ردت عليهم سخرهم
بالذع منه ، وأفهمتهم بلسان إنجليزى طليق مقدار علمها وسبب نزوحها
إلى الريف وكيف أنها خالفت تقاليد عائلات الصعید الكبيرة التي
تحرم على نساءها إتيان أعمال صفار الفلاحات من ملء أو حلب أو
أستخراج مصنوعات الألبان . فهي قد أرادت أن تعيش فلاحه بسيطة
وكان لها ما أرادت . كل هذا أفهمتهم إياه بلسان إنجليزى سليم في
شيء من القذع الحفي لصغر عقولهم التي لا تستطيع أن تتصور
ريفية تتكلم الإنجليزية .

كان الرجل الأجنبي كاتباً روائياً أيرلندياً يرتدى الملابس الأيرلندية
إلا السترة وله ذقن وشعر وساجبان وشارب كلهم بيض . وكانت
البيضاء فتاة عليها ملابس الرحلات ويدها عصي خيزرانية رفيعة لف
طرفها بالجلد . أما الزنجية فكانت مقبولة الملامح لها جلد أسود لامع
كحرير « الساتان » وقد ارتدت سترة الكاتب وسروال له قد أستغنى
عنه . وهي لم تعتد ارتداء الملابس بل كانت تكرهها جداً ، لكنها
اضطرت إلى تلك الملابس المضحكة عندما دخلت مصر حيث كان
فرضا عليها أن تخفى بالملابس أقبح مظاهر الإنسان .

وبعد أخذ ورد قصيرين دعهم ريفيتنا إلى منزلها ولما قابلت أباها في
صحن البيت آفلا من صلاة الفجر ، بادرها القول « ألا تزالين يا بنيتي
تجهدين نفسك بملء الجرر التي لسانا في حاجة إليها ؟ » فقالت تراوغه
جئتك يا أبت بضيوف قد تستغرب أحوالهم لأن مجرد اجتماعهم
أمر مضحك . وهام زنجية وبيضاء وأرلندي « وأشارت عليهم فسلم
عليهم الأب ودخلوا جميعاً إلى المضيغة . وتولى الكاتب تقديم نفسه
وصاحبته إليها قائلاً « لقد نزحت إلى أدغال إفريقيا مع تلك البيضاء
نبحث عن الله وكان لنا في هذا البحث مخاطر ونوادير بعضها سخيف

وبعضها ظريف ، إلى أن انتهت فتأتى إلى معرفته حسب ما أرتأت
وصورت لها أوهامها . وفى النهاية قابلنا تلك الزنجية فى حقل فيلسوف
هناك وكانت هى الأخرى . تبحث عن الله على غير هدى ، إلى أن أقنعها
الفيلسوف أن لا فائدة من ذلك وأنه أجدر بها أن تعبد من بعيد
لأنها أن تعرضت له فسوف يسحقها بقدمه كما يسحق الإنسان الحشرات
دون قصد منه . ومن يديرها أنها ستحب الله إن وجدته ولن تخز
مصعوقة من هوله وبطشه ؟ وهكذا أقنعها الفيلسوف ، وكذلك
رحبت برأيه ، إلا أن هذه البيضاء أتت أن تظل فى أوهامها غارقة
وعلى هذا الاتفاق فى رأى بينى وبين الزنجية قبلت أن أتزوجها
ولأنى أيضا مغرم بمخالفة الناس فقد قالوا فى الامثال (خالف
تعرف) حتى أن لى ولع شديد بالوقوف على رأسى رافعا رجلى فى
الهواء ! (وهنا انقلب واقفا على أم رأسه يهز رجله فى الهواء وقال)
ولا تتدهشوا فانى أعتقد أن جميع الناس مخطئون حين يقفون على
أرجلهم ، وإن طريقتى فى الوقوف هى الطريقة المثلى علاوة على أنها
تدر على الريح الكثير من المتفرجين !.. »

فقال الريفية ساخرة « ولعلك تستنشق الهواء من فتحات بنطلونك

بدلاً من فتحات أنفك كما يفعل جميع البشر»

قال « قد يحوز هذا . ولكن المفهوم على أي الحالات أني أحب مخالفة الناس ومن الغريب أن كثيرا منهم يتخذون هذه المخالفة شريعة لهم فأرجح من وراء ذلك الكثير »

وهنا قال الأب مستغربا « ولكن ما الذي أتى بكم إلى هنا ؟ »
فأجابته البيضاء « لقد كان لي مع هذا الكاتب نواذر جمعة في بحشنا عن الله ، وكان كلما أعطاني فكرة عنه اتضح لي عكسها حتى انتهينا من مخاطراتنا إلى بيت الفيلسوف حيث تزوج مرشدي من تلك الزنجية التي اتفق رأيه مع رأيها في بحثهما . فما زلت بالزنجية أحاول إقناعها برأيي حتى بدأت تشك فيما تعتقد . ولكنها كانت مترددة بيني وبينه ، فلم تكن دائما على رأيي كما لم تكن دائما على رأيه ، ومن هنا بدأت حياتنا تنغص : تتناجز وتتشاجر ونحتد وتتخاصم ، ففكرنا أخيرا في وضع حد لهذا النكد الذي اعترانا ، واتفقنا على أن ننزل بأقرب بلد متمدين حيث نحتكم هناك إلى أحد ، أو نجد من يغلب رأي أحدنا على الآخرين . »
ونزحنا إلى مصر حتى صادفنا ابنتك حين كنا عازمين على السفر إلى القاهرة »

فقالت الريفية « الحمد لله الذى هداكم الى ولكن مادىنك أنت ؟ »

قالت البيضاء « إتنى مسيحية »

الريفية « على حق من أصول دينك ؟ »

البيضاء « أعتقد هذا ؟ »

ثم قالت الريفية للآخرين « وحيث تخالفانها فلستما مسيحيين ؟ »

فأجاباها بأنهما لم يهتديا الى الله حتى الآن . ووافقوا الريفية أرا

يقلعوا عن النزول بالقاهرة وأن يبقوا معها ، إذ توسموا فيها الذك

والمعرفة وحلوا ضيوفا مكرمين على ان يسردوا أمامها ما صادفهم

من مخاطرات .

« ١ »

حتى إذا بلغوا حافة المدينة وبداية الصحراء قالوا تعبنا . فقالت الريفية « يا أهل الحضارة هلا تزعمون أنكم تغنون بالترتية البدنية عن طريق الرياضة ؟ ألا تدعون أن طبكم قد تقدم وبلغ بداية النهاية ؟ فكيف تشعرون بالتعب ولم يزد سيركم على ثلث ساعة ؟ ولكن لكم العذر كله . فما شأن تقدم الطب وماذا تفيد الرياضة مادامت مدنيتم قد حوت إلى جانبها القدر الوافر من وسائل الفساد والانحلال الجسمي والخلقي ؟ »

وكأن هذا الكلام قد أثار من الزنجية موطن الحماس فنهضت تشير بالسير ، لكن البيضاء أشارت إلى الشيخ قائلة لها « رحمة بهذا الشيخ الكبارة . ألا ترين أن كثرة المشي قد تؤلم عظامه أو تساعد على التآكل ؟ » فقالت الريفية « ما دام يتعبه المشي على رجله فلم لا يحاول المشي على رأسه كما هو كلف بالوقوف عليها ؟ » وأنقلب الكاتب واقفا على رأسه كأنه قد تذكر وقفته المحبوبة وأخذ يأتي بحركات مضحكة محاولا المشي فلم يستطع حتى قال « الحق أنى لست متعبا . لكني أخاف .. أخاف أمراً أستشعر أنه لا بد حادث . وها هو الغروب

بروعته قد ألبس الصحراء رهبة . وكأني بهذه الكتائب الرملية تتحضر
لتطغى على . وأنتم تعلمون أن ليس معي ما أدفع به شرها عن نفسي
على أن المهم أني أستشعر حدوث أمر أخافه وأرتعد منه ، ولم يتم
كلامه حتى أخذته رعدة عدلته وطلب منه أن يحيطوا به لئلا يمسه
سوء ، وسار الجميع يتوغلون في الصحراء اللانهائية ، ولم ترد ريفيتنا أن
تضيع الوقت سدى فطلبت من الزنجية أن تبد أسرد مخاطراتها فأعذرت
قائلة « هل لك أن تسمح لي زوجي أن يقص عليك بلسانه فانه قد
أوتي من قوة التعبير وسحر اللفظ وفكاهة الأداء ما لم يتح لي مثله »
وقبلت الريفية وتنحج الكاتب كأنما ملكته سنة من الخيلاء وشرعن
ساعديه وقال [وأول شيء قابلته ثعبان يسمى مامبا - وهو أحد
الثعابين القلائل السامة التي تنقض على الانسان إن هو تخطاها ؛
ولكن معلمة الأرسالية (وهي التي علمت الزنجية دينها وهي عضوة
في إرسالية تبشير) التي أغرمت بتوليف الحيوانات - لأنها كانت
(الحيوانات) لا تخرجها بالأسئلة قط علاوة على أنها وديعة - قد
علمت الزنجية ألا تقتل شيئاً قط ان استطاعت أن تساعد ، وألا

كل كلام تحده هذه العلامة فهو منقول من كتاب برنارد شو بالنص او بالأجمال

تخاف شيئا على الاطلاق . وعلى ذلك أحكمت الزنجية مسك عصاها
وقالت للمامبا « إني اعجب من الذى خلقتك ، ولماذا أعطاك الرغبة فى
قتلى والسم الذى تقتل به ؟ »

فأوما إليها المامبا بلفة من رأسه أن تتبعه وقادها الى كومة من
الصخور جلس على عرشه فيها رجل أبيض ، متين التركيب ذو مظهر
ارستوقراطى وملامح حسنة ، وذقن بارز وشعر متموج نفخ كلاهما
أبيض كالبللور . وعلاوة على ما تقدم فعلى وجه الرجل سياء القسوة
وعدم المبالاة وقد أمسك صولجانا من خشب قتل به المامبا فى الحال
حين كان يقترب منه فى إعجاب وخضوع .

ولما تعلمت الزنجية الا تخشى شيئا ، شعرت بحفاء نحو الرجل
لأنها أولا كانت تظن ان الرجال الاقوياء يجب أن يكونوا زنوجا
وليس البيض سوى معلمات الارسالية ، ولأنه ثانيا قتل صديقها
الشعبان . ولأنه ثالثا كان يلبس قميصا أبيض مضحكا وبذا جرح
كبريائها فى الشئ الوحيد الذى لم تستطع معلميها أن تناقشها فيه ، وهو
أن تفرض عليها أن تخجل من نفسها فترتدى سترة قصيرة . وقد دل
صوت الزنجية على نوع من الاحتقار للرجل حين قالت « إني أبحث

عن الله فهل أنت قادر على توجيهمي ؟ » فأجابها قائلاً « لقد وجدته
فاركمي على ركبتيك واعبدني في التواضع المخلوقة المتحررة ، أو خافي
غضبي الشديد .. أنا رب الملائكة . قد خلقت السموات والأرض
وكل ما فيها . وكما جعلت السم في فم الثعبان جعلت اللبن في ثدي
أمك .. أنا الذي يسدى الموت وجميع الأمراض والرعد والبرق
والعواصف والطاعون وكل ما يثبت عظمتي وجبروتي ! على ركبتيك
يا فتاة ولما تأتي الى ثانية أحضري طفلك المحبوب واذبحيه هنا أمامي
قربانا لأنني أحب رائحة الدم المراق حديثا » قالت الزنجية « إني عذراء
وليس لي ولد » فقال رب الملائكة « اذن فابحثي عن أيك ليزبحك
أمامي واخبري أقاربك أن يحضروا كثيرا من الكباش والماعز والغنم
لشيها أمامي هدايا لنيل رضاي والا فساأصيدهم بأفزع الطواعين ليعلموا
أنى أنا الله » قالت « لست طفلة من الزنوج ولا طفلة كبيرة لأصدق
هذا الهواء وبأسم الله الحق ساسحقك كما سحق هذا المامبا المسكين »
وصعدت اليه الصخور مهيئة عصاها ولكنها لم تجد شيئا حين
وصلت الى القمة . ولقد أفزعها ذلك حتى فتحت كتابها المقدس لتتهدى
ولكن ، سواء أكله النمل أو كان كتابا قديما باليا أكله العطب الطبيعي
فإن صفحاته الأولى قد تحولت إلى تراب ذراه الريح حين فتحته » وعلى هذا

ابتسم الكاتب وقال أن قد انتهت المخاطرة الأولى الزنجية في بحثها عن الله
وقالت البيضاء وعليها علائم الأشمزاز « انه لقلب للحقائق رأسا
على عقب » فطمأنتها الريفية وكانوا قد توغلوا الى مسافة نصف ميل
تقريبا في الصحراء

واختفى قرص الشمس تماما وراء الأفق الذي بدأت العين تميزه
عن الأرض كمسافة عريضة مرتفعة ، لونها أزرق باهت منير أخذ في
الدكنة كلما علا حتى لرأت العين السماء قائمة كثيفة عند سمت الرأس .
ولما أنهمكهم المشى جلسوا مفترشين الرمال الدافئة . فقالت الريفية
للبيضاء « ما كائن ردك عليهما ؟ » وكائن الكاتب لا يستريح الا اذا
تكلم فقال « دعيك منها فلم تكن جادة فيما قالت كما كانت متعصبة فلم
ترا الحقيقة ، لأنها صغيرة وكيف ترد على من قوسته الأيام والسنون ؟ »
وسدت البيضاء فم يدها الصغيرة فسكت ثم انقلب كعادته فواصلت
البيضاء « إنه يقصد بتخريفه هذا حكاية ابراهيم لما ذبح ابنه اسحق
التي ذكرت في التوراة . أتريدين أن أقصها عليك كما شاهدتها في
مخاطراتي ؟ » وأرادت الريفية أن توفر عليها الكلام لأنها كانت
تعرف ما ستقوله ففضلت أن تقص عليهم هي قصة إبراهيم وولده

لأنها كانت الرمز الذي أشار إليه الكاتب في مخاطرات الزنجية فقالت
« كان ابراهيم تقيا وكان رسولا نبيا ، كما كان أيضا مسلما وكثيرا ما
ناهض قومه وسخر منهم لما كانوا يعبدون من الأصنام . ويعجب كيف
يعبد الإنسان حجرا صنعه بيده ! وكيف يقدم القربان الكثيرة دون
تعقل ! والإنسان فوق هذا يعلم حق العلم أن الحجر لا يأكل ولا يشرب
ولا يتكلم ولا يحس . فكيف يتصوره يعقل فيه من الأشياء ليقضى
له من أمور دنياه وليغفر له في آخرته ؟ وقد تحمل إبراهيم من قومه
الكثير في سبيل إرشادهم الى الله الحق حتى انهم ألغوه في النار مرة
ولكن الله عصمه منها فخرج سالما معافى . وكان ابراهيم بأرض الشام
حين تمنى من ربه ولدا فوهبه الله إياه وحقق رغبته فيه فكان
الابن صالحا .

وفي ليلة هجم فيها القوم وشمل الطبيعة سكون رهيب ظل ابراهيم
يتهدد حتى غلبه النعاس فنام . ورأى في منامه حلما غريبا لم يتعوده ، فكأنه
يمسك بابنه اسحق يذبجه . فلما انباج الصبح أخذته الدهشة وأخذ
يتروى في الأمر ، وظن ان الشيطان قد لعب به في هذه الليلة فأراد ان
يذبح ولده . لذلك سمي هذا اليوم « يوم التروية » . ولكن إبراهيم رأى
في الليلة التالية نفس الحلم وزاد أن سمع صوتا يأمره بذبح ولده ، فلما قام

في الصباح ففكر في الأمر ثانية وعرف أنه أمر الله لذا سمي هذا اليوم «يوم عرفة». ولم يعص إبراهيم أمر ربه بل أخذ ابنه (وكان صديقا) إلى الجبل ليجمعا الحطب. ولما بلغاه أخرج سكينا حادة ومال على إسحاق ينبؤه بما رأى في المنام، فما كان من إسحق إلا أن طلب من أبيه أن ينفذ فيه أمر الله وخضع لأبيه خضوعا تاما؛ فلما حرك إبراهيم شفرة السكين على رقبة ابنه وجدها لا تقطع بالرغم من حدتها. وسمع إبراهيم من يناديه أن قد نفذت أمر الله فكف عن ذبح ابنك ونظر حوله فرأى جبريل ممسكا بكبش كبير مقدما إياه لإبراهيم فداء عن ابنه، رحمة من الله وتقديرا لأخلاصه. وهكذا كان الفداء، وهكذا لم يرد الله سفك الدماء، بل كان امتحانا لعبده وكان درسا للناس من بعده «

ولما انتهت الريفية من سرد القصة، اشارت إلى القوم الذين شملهم وجوم عميق أن يهبوا ليسيروا قليلا؛ فاعتدل الكاتب الذي لم يستطع المشي على رأسه وقال «لك أن تقول كل شيء ولكنني اعتقد أني على صواب» فقالت الريفية «إن كان بلغ بك الحال حدا أصبحت معه تريد الناس بل ترغبهم على قبول ترهات تقلب الحقيقة رأسا على عقب، فلك أن تقول فقط وليس علينا أن نقبل» فأشار إلى الزنجية وهو يقول «سليها أذن مارأت من أمر هذا الإله أن كنت لا تصدقينني

ولم يكده يتم كلامه حتى مادت الأرض تحت أرجلهم، وإذا بهم في صعيد واسع تشمله هالة من نور باهر . اتخذت سماواته ألوانا بهيجة كأن الأرض تجذبها إليها فتبهط ، لكنها سرعان ما تعلو ثانية ، وقد اتخذت هذه السماوات خاصيتي السوائل والغازات . وقد فرشت الأرض من سندس أخضر، تناثرت فيه مقاعد من مرمر لين ناصع رائق ، يبهط تحت الجالسين إذا ما جلسوا ثم يعود إلى شكله الأول إذا ما قاموا ؛ وقد جلس على تلك المقاعد أناس لهم من الجمال قسط وافر ترى الماء خلال رقابهم حين يشربون من شدة صفاء ألوان أجسامهم ..

رأوا كل هذا فكبرت ريفتنا لله وصعق الثلاثة الآخرون من الدهشة التي ملكت عليهم أزمته . وحاولوا الوقوف للاستمتاع بالفرجة لكن شيئاً كان يدفعهم إلى مكان معين فسادوا . وما شعروا إلا وقد سمرت أقدامهم في الأرض حين وصلوا إلى منعطف به ماء كاللجين تسبح فيه قوارب من ذهب خالص، تحمل حسانا مرحات مبتهجات في غير ما فحش ولا خلاعة . وسرى في أجساد أصحابنا صوت حاد هز كيانهم وشخص بأبصارهم؛ فإذا مياه البحيرة يرتفع في شكل عمد رسمت حروفا لامعة وضوء كوني الآيات الآتية تحت القبة الملونة

« قالوا ابنوله بنيانا فألقوه في الجحيم فأرادوا به كيذا فجعلناهم

الأسفلين وقال انى ذاهب الى ربى سيهدين رب هب لى من الصالحين
فبشيرناه بـغلام حلیم فلما بلغ معه السعى قال يا بنى انى أرى فى المنام اذ
اذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى ان شاء الله
من الصابرين فلما اسلما وتله للعجين ونادىناه أن يا إبراهيم قد صدقت
الرءيا انا كذلك نجى المحسنين ان هذا لهوالبؤ المبین وفديناه بذبح
عظیم »

حاول الكاتب ان ينقلب على رأسه نفحاته مهارته هذه المرة . وم
هى الا لحظة توجهت الكتابة فيها امام أعينهم ثم اختفت . وقد كتبت
بالعربية الا أن الكاتب وصحبه استطاعوا ان يقرؤها ويفهموها تماما
ثم ما لبثوا ان وجد الأربعة أنفسهم حيث كانوا قبلا ، ولا اثر لما شاهدوا
وقد جن الليل وحل على الصحراء من ضوء القمر الفضى خشوع
وسكينة . وفكر الأربعة فى الرجوع وبدأوا فى ذلك حين قالت الريفية
للكاتب « هل تستطيع المغالطة بعد الآن ؟ أم يفهم مما رأيت أن الله
يحب سفك الدماء ؟ لك ان تقلب الفهم ما شئت وليس لك أن تقلب
الحقيقة وتحاول إدخالها مقلوبة فى أوهام الناس .. انك جبار عاجز
أراد الله اختبار عباده فقلت أراد سفك الدماء ، وأراد العظة وإحلال
المحبة والاخلاص بين البشر وبعض وبين الله وبينهم فزعمت إنه مغرم

بشم رائحة الدماء الطازجة ! ولكن الحمد لله أنت ليس الناس بلهاء
لتأخذهم ببلاغتك »

فانقلب الكاتب على الأثر ولكنه ما لبث أن اعتدل مرتعدا .
إذ رأى القمر يهوى إليهم في سرعة مخيفة حتى وقف على حافته على
الرمال . فبدت صفحته المغضنة مرآة عاكسة يرى الإنسان عليها صور
الحبة والآلة مجسمة ملبوسة ، وصور الخير كلها وقد اتخذت أشكالها .
تدخل على النفس فتطبعها بطابعها . ثم لحظة وبرزت على القمر السنة
من النار القانية كتبت الآية الآتية

« ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق »

ولم يكن القمر في هذه الليلة بدرا ، لكنه بدا بدرا وظل على تلك
الحال زهاء جزء من الثانية ، خيل إليهم انه ساعة . ثم صعد الى مكانه
وكأنه يبتسم . ونظرت الريفية إلى الكاتب الذي أخذ يداعب ذقنه في
حركة عصبية وقال لها « هيا .. هيا بنا أريد أن أنام . أعصابي لا تحتمل
أريد أن أستريح » فقالت الريفية « أبمثل هذا يأمر الله عباده إن كان
شرها إلى الدماء ؟ لعمرى لن تظل تنقلب على رأسك حتى تسقط
أمعاؤك في حلقومك فتموت خنقا ! » وقالت الزنجية « ليكون زوجي

قد أثر على أعصابي أو عالجني بالتويم المغناطيسي حتى رأيت الضلال
في مخاطراتي ، وقد أراذني أن أراه .. عجبا ! لكن ما أجهل ما رأينا في
ليلتنا هذه ! »

فقلت الريفية وهي تربت على كتفها « وماذا رأيت ؟ ! سوف
ترين أكثر من هذا بكثير وسوف أعلمك لغة العرب وأهديك مصحفا
لا تبلى له جدة ولا تذهب له لذة كلما فتحته للقراءة فيه »

وكان الكاتب عز عليه أن يهزم بمثل تلك السهولة فقال للزنجية
مراوغا « ومن يدريك أنها تنومك تنويما مغناطيسيا ؟ لاسيما وعيناها
جميلتان ساحرتان ، دعك من هذه الريفية يا زوجي العزيزة فاني أوتيت
العلم الأكبر ، وترين أن عيني ضعيفتان وهما أضعف من أن ينظرا
إليك فضلا عن التأثير عليك حتى اني كثيرا ما فكرت في استعمال
نظارة ! ولكن الأزمة .. دعينا من هذا وافهمي ان الله يحب سفك
الدماء ورائحة شئ اللحوم »

وهيأت الزنجية عصاها تهم بضربه ، فقطعت عليه مواصلة الكلام
وسكت . وأخذ يأتي بحركات مضحكة كأن يجري بسرعة ثم يقف فجأة
أو يقفز في الهواء ثم يقعد محدثا اصواتا جنونية مزججة . ثم رجاها في

الوقوف للاستراحة فوقهن . ووقف هو منتقيا كعادته . ولكن سرعان ما اعتدل إذ طفت الرمال عليهم حتى نصبت من نفسها امامهم سورا كبيرا لا حدود له ، اخذت تلمع فيه حبيبات الرمال في ضوء القمر ، ولم يكن ليرى خلال هذا السد العظيم الا فجوة منه امامهم ، جلس على عرشه فيها شبح يتشبع بالبياض يعجز العقل عن معرفة كنهه . وقد انعكس منه ضوء مختلف الاشكال اظهر ما امام الشبح الساطع من الناس في ملابسهم الحريرية الزاهية الالوان . فجرت اليه الزنجية تقول « هذا هو الاله الذنى قابله في بدء مخاطرآى ، ولحقها الباقون ، فاتخذوا أمكنتهم فى الصفوف بين الناس وسمعوا هذا الشئ العظيم الجليل يقول الآيه الآتية

« ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم »
وزال كل ما أمامهم على الأثر فوجدوا طريق عودتهم ممهودة للسير . ولاحت أنوار القرية من بعيد فقالت الزنجية « غريب أمر هذا الذى رأينا . . الا ترى معى يا زوجى العزيز أنا كنا حاملين فصبحونا ؟ » فأجابها مغالطا « نعم بل هى أحلام اليقظة . . لا شئ سيؤثر فىنا فيما بعد أن كنا أقوىاء العزم » فقالت الريفية « بل كان

ضلالكم هو الحلم الذى شملتكم به مدنيتمكم المادية ، ومطاوعتمكم لأهوائكم
وشياطين نفوسكم وغرائزكم البهيمية ، فى ظل التحرير من الأفكار
القديمة ، دون وعى أو تبصر يعقل هواكم ويحكم امسالك زمامكم . لقد سمعتم
الآن الحق يأمركم الا تخشوا الفقر فقتلوا ابناءكم . ما أجل ما يعظكم
به الله . . ولكنكم غافلون . . يا أيها الكاتب لو كان الله من صورت
لهذه الزنجية حقا لاستحق كل ما عاملته به من قسوة وتحقير وامتهان .
ولكن الله غير ما زعمت ولقد افتريت عليه الكذب فويل لك منه .
ومن يدرى لعل الله يهديك على يدى ؟ »

وكان السلال قد أعياهم حين وصلوا الى البيت فى ليلتهم هذه
فراحوا الى مضاجعهم يغطون . تهب عليهم من فتحات النوافذ نسمة
خفيفة باردة ، ويلفهم السكون بملحفة ويقبلهم ضوء القمر فى مواضع
شتى .



« ٢ »

وقيل أن الزنجية طلبت من الريفية قميصا ترتديه تحت سترتها ، بعد أن بدأت تستشعر الخجل من نفسها قليلا . والحق لدينا أنها فعلا ارتدت هذا القميص الأبيض في الصباح التالي . ولم يمر بنصف النهار الأول ما هو جدير بالذكر ، غير أنهم أخذوا غداءهم وقت الظهيرة وذهبوا الى حقل كبير . حتى اذا توسطوه جلسوا بجانب ساقية قامت بجوارها شجرة وارقة الظلال . وهكذا افترش اصحابنا الثرى الخصب وهياؤا الطعام الذى معهم وأخذوا يتناولونه بشهية غريبة . لاسيما والهواء حر من كل قيد لا عائق ولا مانع . فقالت الزنجية « الجو جميل واظنه أوفق وقت لسرد مخاطرتى الثانية » ووافق الجميع على قولها فبدأت قائلة « قابلت إلهما ما كرا عجوزا محبا للمناقشة فسألته [لم خلقت الدنيا بكل هذا الشر الذى فيها ؟] فأخذ يراوغنى قائلا [ان هذا هو نفس السؤال الذى كنت أحب أن تسألينه . .] وقص على قصة النبي الذى يسمونه چوب [وكيف أن كان چوب هذا غبيا وضعيفا وكيف أن الله ساط علىه كل الشرور الديوية ابتلاه بها ، ليعرف أنه يستطيع أن يفعل به كيف يشاء . وقلت لهذا الاله « لا أريد مناقشة

بل أريد أن أعرف.. ان كنت حقاً خلقت الدنيا.. لم خلقتها بهذه
الحالة الرديئة البشعة ؟ » فعجب الرجل من لفظة الرداءة وأخذ يستخر
منى ومن ضعفه. ويهيب بى أن أخلق دنيا أحسن من هذه أن استطعت ،
بل حوتنا بسيطاً يجرى فى البحر ، بل فأرة صغيرة ! وهكذا أخذ يشمخ
ويتعجرف ويضحك على هاربا من سؤالى فتعبت منه وسئمته ثم
قلت « لئن كنت خلقت الدنيا بهذا الشر فلا بد أن لك ذوقاً خاصاً
يميل الى الشرور ، ولما لم يحب . بل استمر فى المحاورة الفارغة ليترب
من سؤالى كما كان دأبه فى المراءعة . قلت « أن الهالا يستطيع اجابى
لاتفع لى به » وهجمت عليه بعصاى فاخترت متضائلاً تحت المائدة التى
جلس عليها ، ولم أدر الا والمائدة نفسها تغوص فى الأرض]

وهنا انقلب الكاتب وأخذ يأكل وهو على هذه الحال حتى شفق
اكثر من مرة . فرغبت اليه البيضاء ان يعتدل لئلا يموت خنقاً فاعتدل
وقالت البيضاء للريفية « لقد قابلت نفس هذا الاله وكانت تعلو عينيه
سحابة قائمة حزينة بالرغم من ابتسامة خفيفة كانت تلوح على عيائه .
فلما سألته عن سبب حزنه قال « سأعلم الناس درساً فى قالب قصة
— لأن الناس لا تفارقهم عقول الاطفال مهما كبروا فى السن —
وهذه القصة هى قصة جوب . فان الناس يعتقدون ان الشر يحل

بالرجل اذا كان ضعيف الايمان سقيم الخلق فغضبت عليه . ولكن القصة ، وبطلها چوب ، ستظهر چوب هذا طيبا تقيا . وبالرغم من طيبته ستحقيق به مصائب كثيرة . فيفهمون من القصة أنه في حين أن فساد السريرة يأتي بالمصائب . الا ان هذه المصائب لا تحمل دائما بفاسد الطبع وحينذاك سيتعلمون الشفقة على المعنى كما يتعلمون الشجاعة حين تنزل بهم نازلة أو تلم بهم ملة .. سيعرفون هذا بعد ان كانوا يعتقدون في ثلاثة اشياء : أولها انى اعاقب ضعاف النفوس بالخطوب ، وثانيها أن كل من يصيبه مكروه فهو ضعيف الخلق وثالثها انه ما دامت حلت المصائب بحوب فهو اذن فاسد السريرة » . هكذا أجابني الله ولكنه لم يجبنى عن سبب وجود الشرور بالدنيا . إذ افهمنى ان عقولنا صغيرة وان هناك كثيرا من الأشياء الخارجة عن حدود ادراكنا مهما بلغنا من الكبر سنا وعقلا . وأنه ينبغي ان يلقي الناس درسا واحدا في كل مرة ، بدلا من دروس مرة واحدة .. هذا ما وجدته بشأن ما سمته الزنجية إلها ما كرا »

وقالت الريفية على الأثر « لعلك أخطأت انت الأخرى في فهم القصة بعض الشيء . فقد عرفت الكثير عن تلك القصة التى يرجح انها ظهرت في القرن الرابع . ولكنها لم تتم الا في القرن الخامس قبل

الميلاد وهى قطعة شعرية رائعة صدق فيها قول بليك Peake « وأجل
فائدة للكتاب (كتاب جوب) تنحصر فى تاريخ الروح أكثر منها
فى مناقشة مسألة أو موضوع . وقد كان رائد مؤلفه أو مؤلفيه فيه
ان يكونوا معلمين قبل ان يكونوا شعراء او مفكرين . كما كانت العادة
فى مؤلفات العبريين فى تلك الأيام » ولكننا لو أردنا يا صديقتى ان
نحكم على الكتاب كجملة ، او نستخلص منه ككتاب فكرة واضحة
معينة ، لاختفقنا كل الاختفاق فهو غامض فى مجموعه . اما ان كانت
هناك ظاهرة شملت كل ما وضع فى الكتاب على العموم ، فهى ، أن
نظرية العقوبة العادلة قد رفضت تماما . بل وأثبت خطأها . ولا نفهم من
سيرة جوب نفسه فى الكتاب الا انه انكر العدل الالهي وشمله شعور
الغربة نحو الله .. علاوة على أن الشاعر نفسه الذى نظم حكايته لم
يدلنا ان كان يعتقد او لا يعتقد ان الله يعنى كثيرا بأمور الفرد ، فى
حين انه كان على يقين من ان العالم لم يخلق للأنسان وحده . وقد كان
الشاعر فى دفاعه عن عقيدته هذه قويا صارما خلال القصيد كله ، كما
أكد ان كل اوهام البشر وتخييلاتهم وتفكيرهم لن توصلهم الى معرفة
تفسير الله لمخلوقاته .. وهذا هو ما فهمت منه أن قال لك الله أن هناك
اشياء خارجة عن حدود إدراك البشر

وهنا أخذ الكاتب يهذي قائلاً « هذا خطأ .. كيف يكون ذلك
والعلم جاد في طريقه لمعرفة كل شيء .. نعم كل شيء ! وسوف نعلم كل
شيء أردتم أو لم تريدوا »

وهددته البيضاء بعصاها فسكت . وضحكت الريفية قائلة له
لا يغرنك ما عرفته وما ستعرفه بل وما ستعرفه الأجيال بعدك . فإن
تكون معرفتكم أكبر من ذرة الرمال وسط محيط الصحراء المترامي
والأفيل باستطاعتك أن توضح لي ما الذي يدفعك على التنفس
مادمت حيا . سواء كنت نائما أو يقظا أو مشغولا لا يبطل لتنفسك
حركة ؟ ستقول أنها حركة غير إرادية . إذن بأرادة من تعمل ؟ لن
تستطيع القول لأنك لا تعرف . ولترك هذا لأبسط منه فهل تعرف
السر في حركة اللسان اللطيفة حين تمضغ الأكل فيساعدك على وضعه
تحت أسنانك ونقله في فمك حيث تريد ؟ يا شيخ هذا أبسط ما يمكنني
أن أخرجك به علاوة على الكثير مما حولك من أشياء غامضة .. اني
لا أحرم عليكم البحث بل ولا أكرهه . لكن الاعتراف بالحق فضيلة
والحق هنا هو العجز عن الإدراك .. فليبحث العلم كما يشاء لا حرج عليه
إلا إذا تكبر وتعرض لذات الله بسوء .. أوه ليس هذا محله ...

وقالت الزنجية تريد تحويل الحديث الى المسألة التي تحيرها

« ولكن لم خلق العالم وبه كل تلك الشرور؟ أليس من سبيل للإجابة »
وأجابتها الريفية على الفور تستدرجها « لو لم يوجد الشر بالدنيا
لكانت أشبه شيء بالجنة »

قالت الزنجية « ولم لم تكن الدنيا جنة ؟ »
فأجابتها الريفية « لما كان هناك فارق اذن بين سكنى آدم في الجنة
وبين هبوطه الأرض عقابا له على عصيان أمر ربه »

ففكرت الزنجية قليلا ثم قالت « وكيف عصى آدم ربه ؟ »
وأجابتها ريفيتنا قائلة « أمره الله هو وزوجته ان لا يقربا شجرة
معينة في الجنة . فوسوس لهما الشيطان حتى أكلا منها . فأهبطهما الله مع
إبليس الى الأرض وجعل من إبليس عدوا لهما . . وبديهي أن لا ينزلهما
الله ارضا هي والجنة سواء فان شئت تعليلا أعمق لقلت لك »

قالت الزنجية في لهفة « هات ما عندك »

فابتسمت الريفية وقالت « هل تعتقد ان الشر قد خلق لمجرد
كونه شرا ؟ » . وتساءلت الزنجية « وهل خلق لشيء آخر ؟ »

فقالت الريفية « خلق الشر سلاحا وعونا وصيانة للكائن من
الآخر . فأنت ترى ان الشر شر بالنسبة للمصاب به لكنه خيرا بالنسبة
لمن فعله »

فقلت الزنجية فى دهشة « وكيف يكون الشر سلاحاً أو خيراً ؟
إنى لا أفهم . »

وأجابتها الريفية « لو لم يكن السم فى فم الثعبان لما استطاع ان
يعيش فى الوسط الذى يعيش فيه . كذلك لو لم تكن مخالب الأسد
قوية فتاكة ما استطاع أن يفترس لياكل . ولو لم تكن الأمراض
لما رزق الأطباء .. وعلاوة على هذا وغيره فإنه لو لم يكن هناك شر
لما استطاع الإنسان ان يعرف الخير مطلقاً . والأشياء كما تعلمين تعرف
بأضدادها .. »

وقاطعتها الزنجية قائلة « أما كان من الممكن ان يخلق الله الأشياء
متآلفات بطبيعتهن يحسون ويعرفون الخير . كما يعرفون الشر دون ان
يخلق بينهم . فيستطيع هذا ان يأكل دون ان يضر غيره ، وذلك ان
يعيش دون أن يضره أحد ؟ »

فقلت الريفية « كان هذا ممكناً ، ولكن حكمة الخالق رأت ان الدنيا
كما هى الآن أصلح وأنفع للإنسان . ولأقرب الى ذهنك ما أقول
أسألك لم اخترع الناس السكك الحديدية وقطاراتها وأصبحوا
لا يستغنون عنها ؟ »

أجابت الزنجية على الفور « لأنها وفرت على الناس وقتهم وجهدهم

وقربت المسافات ، وزادت الصلة بين الناس ، فزادت المنفعة من جميع الوجوه وصارت حياتنا أحسن من ذي قبل »

فقلت الريفية « حسن جدا . هذا بجانب أن القطارات الحديدية تدهس الناس ، وتخرج عن قضبانها فتغرق في الترع وتغرق الركاب وهكذا لكننا قسنا النفع بالضرر فغلب النفع وفضلنا الا ننبذ السكك الحديدية . لذلك أقول بدورى — والقياس مع الفارق العظيم — ان الله عز وجل رأى ان خلق الدنيا بهذا الشكل انفع للانسان وللغرض الذى خلقه من أجله . والله حكيم لا يخطئ ، وهو جل شأنه ، كما تدبر البشر وأخذوا حيطتهم من غوائل أخطار القطارات ، كذلك لم يرد الله الا خير الانسان فأنزل الأديان تهدينا إلى الخير ، ووهبنا عقلا يقينا السقوط فى الشرور ، ويهين لنا اسباب النجاة والحيلة ، فليس علينا إذن أن نلومه ما دام قد هيا لنا العلاج والوقاية لخير المجتمع . ولا أن نتطفل عليه بالسؤال لأنه لم يفرض على نفسه أن يعلمنا كل شئ وله الحرية كلها فى ذلك ...

« انك تقولين لزوجك وابنك وغيرهما ، لا تتدخل فى شئون غيرك ، اذا اشتممت من أحدهما التدخل فى أعمالك . وهذا بدعوى

الحرية الشخصية التي اكتسبتها من المدنية . فكيف لا تستطيعين تصور
عدم التدخل في شئون الله وله الحرية القصوى لأنه خلقنا جميعا .
لا شك أن له الحرية التامة في أن يعلننا أولا يعلننا ، في أن يخبرنا
أو لا يخبرنا بأمور شكلها وخلقها ، علاوة على أنه لم يحظر على عقولنا
أن تبحث وتعرف ما دامت تسير في خطوط مستقيمة... ان هذا لفضل
منه عظيم لا يسعنا الا أن نشكره عليه ، على ما امتن علينا به من نعم ،
وكان الجميع قد انتهوا من الطعام فهموا يغسلون أيديهم من إحدى
الجرر التي علقت برحاية الساقية وبينما هم ينحنون لم يشعروا الا وهم
على الماء جالسين في رفق وطمأنينة . وأمامهم سبع من العذارى اللاتي
لم تقع العين على أجمل منهن . وقد ارتدين ثيابا خضرا متسعة تفوح منها
رائحة عطور لا تملأ الأنف ، بل تظل تطلب المزيد . وقد جلسن على
شبه أرجوحة دانية حتى غمرت سيقانهن في الماء . وقد أخذت الأسماك
المختلفة تقفز حولهن حتى علقت بحبل الأرجوحة الطويل . وكان اذا
ما تابعها البصر الى أعلى وجد الحبل قد تدلى من لاشيء . ووجد السماء
قد زينت بنجوم كثيرة كل منها قد ارسل شعاعا خاصا له لونه وبهجته .
وقد ارسلت تلك الأشعة الى الماء تحتها ، فظهر كل شعاع منها نوع
من الأسماك الذي يتلون بلونه . وكأن شيئا قد نبه اصحابنا الأربعة الى

العدارى فسمعوهن يرتلن بصوت فاق الرخامة والعدوية ، غير أنه كان خافئله روعته وجلاله ، وكن يرتلن الآيات الآتية

« وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبؤنى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم انى اعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون »

وأخذت الأشعة تنكمش قليلا قليلا حتى أنعدمت . وهوت الأرجوحة بالعدارى فى اليم واخذ الماء يرتفع بسرعة باصحابنا حتى كانوا على وجه الأرض .. فذهلوا برهة ثم أفاقوا يتحدثون بروعة ما رأوا . وكانما أسبل ستار قائم رقيق على عيونهم ، ولما ذهبت عنهم الغشية أحسوا أنفسهم فى المنزل كل فى مضجعه يسبح بحمد الله . ثم ما لبثوا أن ناموا يتقون بالنوم شر القيلولة . وأخذ يداعبهم نسيم شرقى لطيف هو برد وسلام . فكنت تراهم فى نومهم باسمين

« ٣ »

كانت هذه الليلة أقرب إلى الدفء . ولم يبرز قمرها إلا حوالى الساعة الثامنة والنصف . فتكاسل الكاتب والبيضاء عن الخروج لما خرجت الريفية ، تصطحب الزنجية معها إلى قصر الليبرانتو الفرعونى ، الذى يبعد عن العزبة بمقدار ساعة قطعناها سيرا على الأقدام . ولما لاح شبحه من بعيد قالت الريفية « بنى هذا القصر العظيم فى عصر الملك أمنمحت الثالث منذ ثلاثة آلاف من السنين . ويرجح أنه كان دارا لموظفى الحكومة . لأنه يحوى أكثر من ثلاثمائة غرفة يضل المرء طريقه خلالها . . . وها هو كما ترين لا يزال يناطح البلى ويسجل على الأيام والخطوب حضارة المصريين الفراعنة . »

وفى الحق أن هذا القصر يبدو فى الليله المقمرة متشجا بفيض من الروعة والجلال لا مثيل لها . وكأن كلا من أحجاره المتآكلة تنطق فى نفس واحد مع زميلاتها بقوة فرعون ، وتشيد برقى مصر ، وتندد بثروتها وبذخها : وجلست الفتاتان بجوار الباب العظيم تأملانه ثم تسرحان الطرف إلى القمر والنجوم ، وتهبطان به إلى الصحراء الرحبة

المعقدة بالكثبان الكثيرة ، تبدو لها ظلال كثيرة في ضوء القمر .
فقالت الريفية في زهو مصطنع مشيرة إلى القصر :

« مارأيك فيمن بنى هذا ؟ »

وأجابتها الزنجية « جبار قوى حديدي الارادة واسع السلطة .. »
وأردفت الريفية مشيرة الى القمر والنجوم « ومارأيك فيمن علق
هذه الأشياء على هذه الحال وجعل لها فلکها تجرى فيه بمقدار وميعاد ؟ »

أجابت الزنجية « أقوى وأجل واعظم »

فابتسمت الريفية قائلة « هو الله خالق الكون جميعا ! »

وكأنما تذكرت الزنجية شيئا فقالت « لكن الشاب اليوناني .. نعم
هو اليوناني الذي قابلته في مخاطراتي الثالثة .. لقد قال لي كلاما كثيرا
كله حول إنكار الله والحياة الاخرى .. »

قالت الريفية دهشة « ولم أنكر ؟ وكيف ؟ ماذا قال لك ؟ »

وانشأت الزنجية تفص حكايتهما معه قائلة : —

[قابلت شابا أبيض حليقا يونانيا فقلت له « لك عينان عارفتان
وأنا ابحت عن الله فهل لك أن توجهني ؟ » قال « لا تهتمى بهذا وخذى
الدنيا كما تجيى لك . لانه لا شيء وراءها فان جميع الطرق تنتهى عند

القبر الذى هو مدخل اللاشيئية، وفى ظل اللاشيئية فكل شيء عبث،
إسمعى نصيحتى ولا تكلفى نفسك عناء البحث عن شيء يبعد عن حدود
أنفك . لأنك ستعرفين دائماً أن هناك شيئاً وراء هذا الأنف ، وفى ظل
تلك المعرفة ستمتعين بالسعادة والرجاء « قلت « لكن عقلى يثور إلى
أبعد من هذا ، وليس من العدل أن يغمض الإنسان عينيه . لأنى
أرغب من الله ما هو أكثر من السعادة والرجاء ، فإن الله سعادتى
ورجائى « قال « وماذا لو وجدت أن ليس هناك الله ؟ « قلت « لأصبحن
امرأة فاسدة أن لم أعرف أن الله موجود « قال « من قال لك هذا ؟
لا ينبغي أن تتركى الناس يقيدون عقلك بمثل تلك الحدود . علاوة على
أنه ماذا يضريك لو كنت فاسدة ؟ « قلت « هذا هراء فعنى كوفى فاسدة
أن هذا أمر لا يجب أن أكونه «

فقال « إذن يجب أولاً أن تعرفى ما يجب أن تكونى عليه ، قبل
أن تستطيعى أن تقولى أنك صالحة أو فاسدة «

قلت « هذا صحيح ولكنى أعلم انه يجب أن أكون صالحة . حتى ولو
كان هذا الصلاح فساداً « قال « لا يبدو فى كلامك شيء من الإحساس «
قلت « ليس فيه نوع إحساسك ولكن فيه نوع الإحساس بالله

كما أنى أريد حيازة هذا الإحساس ، وأشعر بانى حزنه . لذا فسأقدر على أن أجد الله »

قال « كيف تخبرين بما سوف تجدين ؟ نصيحتى إليك أن تؤدى كل عمل يأتىك ما دمت قادرة على أدائه ، وهكذا تملأين الأيام التى تعيشينها بالمنفعة والشرف ، قبل النهاية المحتومة ، حين تنعدم النصيحة والعمل والفعل والمعرفة والوجود أيضا »

قلت « لا بد أن هناك حياة ثانية بعد الموت . فان كنت لا أستطيع أن أعيشها فانى قادرة على معرفتها »

قال « هل تعرفين الماضى الذى حدث فعلا ؟ لا تعرفينه . فكيف تأملين بأنه باستطاعتك معرفة المستقبل الذى لم يحدث بعد ؟ ! »

قلت « ولكن المستقبل لا بد حادث وأعرف منه الكثير حتى أستطيع أن أوكد لك ان الشمس لا بد ستشرق كل يوم »

قال « وهذا ايضا عبث فان الشمس تحترق ولا بد يأتى اليوم الذى تحرق نفسها فيه »

قلت « ليست الحياة سوى لهب دائب فى إحراق نفسه . ولكنه يتزود بنار جديدة كلما ولد طفل . كما ان الحياة أعظم من الموت والأمل أجل من اليأس . . سوف أودى العمل الذى يأتينى حين

أعلم فقط أنه عمل صالح . ولمعرفة ذلك يجب أن أعرف الماضي
والمستقبل ويجب أن أعرف الله »

قال وهو يرميني بنظرة شديدة « تعنين أنه يجب ان تكوني
أنت الله »

قلت « على كل حال أشكرك ، فانتا نحن الشبان عقلاء ، وقد علمت
منك أن معرفة الله هو أن أصير آلهة ! لقد قويت روحي وقبل أن
أتركك فهل لك أن تعرفني بنفسك ؟ »

قال « انا كوهيليت المعروف باسم اكسلسياس الواعظ فليكن الله
معك ان استطعت ان تجديه ! لكنه ليس معي . . تعلمي اليونانية انها
لغة الحكمة » ثم ودع وانصرف]

فقالت لها الريفية « لك العذر ان لم تستطيعي إقناع هذا اليوناني »
إذ كنت جاهلة وأظنك الآن أقدر على إقناعه . . وعلى كل فسأثبت
لك وجود الله بطريق العقل . . انهضى »

وسارتا قليلا حول قصر الفراعنة وسادهما الصمت لحظات شملها
فيها التأمل والخشوع . وماهى الا غمضة عين حتى تبدلت الحال
غير الحال . .

وظهر في جزء من الصحراء ماء كثير كأنه حجز بحائط باللورى

شفاف كنت ترى خلاله جميع الأسماك النهرية والبحرية ! وسبحت
الأسماك الصغيرة الملونة في بهاء دقيق علوى ، بين الأسماك الكبيرة
والحيوانات البحرية الضخمة ذات الألوان البنية أو الرمادية أو
البيضاء والسوداء ، وكان المنظر بديعا أخاذا . زاده بهجة وجمالا اجتماع
الأصداف والألحى البحرية في قاعه ، في شكل اهرامات ومخاريط
منسقة الوضع بحيث لا يخفى بعضها البعض . فكبرت ريفتنا لله
ودهشت الزنحية أيما دهشة !

وقبل أن تهما بالكلام استرعى بصرهما مدرج كبير ممتد الدرجات
أقيم في ناحية من الصحراء ؛ وقد جلس على كل درجة منه جنس من
الأجناس البشرية يمارس عاداته وتقاليده ولغته . حتى لكنت ترى
جميع الحضارات مجسمة : قديمها وحديثها . كما ترى الحالات الهمجية
وأضحة كل الوضوح ظاهرة كل الظهور . واختلفت ملابس الجميع
أيما اختلاف . فهؤلاء عرايا وأولئك نصف عرايا ، وهؤلاء مهملو
التياب وأولئك فاخروا الملابس . وهكذا بدا الإنسان على هذ
المدرج في جميع أطواره وعاداته ومختلف حضارته قديما وحديثا
كل ذلك بدا في مشهد لا يؤذى العين ولا يكدر الذهن ولا يشغل علم
الحس . فكبرت ريفتنا لله ودهشت الزنحية أيما دهشة !

ولما هممتا بالكلام استرعت نظرهما غابة كثيفة انتصبت في ناحية أخرى من الصحراء . وكانت الغابة كثيفة في ناحية خفيفة في الأخرى . منبسطة مزروعة قاحلة عشبية نامية ، وقد حوت جميع انواع النباتات المختلفة الأجواء ، كما حوت جميع الحيوانات التي تعيش في تلك الأجواء : كبيرها وصغيرها ، ضعيفها وقويها . وأهم ما كان يأخذ النفس من ذلك المنظر العجيب ، مساحة لا بأس بها من الأرض كان دائم التحول دائبة التغير ، تبدو تربة غبراء ، تغمرها المياه فتصير سوداء ، ثم تنقلب على بعضها وتبدأ خضرتها تنبت وترتفع ، ثم تنمو بنسب مختلفة ما بين زرع وشجر ، حتى اذا اكتمل نموها جميعا تلاشت الحال كلها . وترى الدواجن والحيوانات المستأنسة تفيض بها الأرض ثم تختفى حيث تبدأ الأرض عمليتها الأولى من جديد . بنشاط جديد . كل هذا يحدث في مثل لمح البصر غير أن فتاتينا استطاعتا أن تعيا ما يحدث كل الوعي . فكبرت ريفتنا لله ودهشت الزنجية أيما دهشة !

وقبل أن تهما بالكلام استرعت نظرهما غدران وأنهار تجري في رشاقة ، بين جنات وحدائق واعناب نضيرة نظيفة ، نبتت فيها جميع أنواع الزهور والورود والرياحين . وبدت على الأزاهير والورد مختلف

فصائل النحل والفراش ، كما كانت تطير بين أفنان الشجر مختلف الطيور : المغرد منها وغير المغرد . وقد كسيت معظمها بريش جلّت صنعة الفنان الذى لونه ونسقه فى أبدع الصور . فكبرت ريفتنا لله ودهشت الزنجية أيما دهشة !

وقبل أن تهما بالكلام استرعى نظرهما فى السماء تغيرات جووية مدهشة من برق ورعد ، ورذاذ ينساب وأمطار تنهمر ، وسيول تجرف كل هذا يبدو فى الأفق البعيد . اما الأفق القريب فقد شغلته الكواكب والنجوم فى صورة مصغرة تدركها العين وكانت كلها تجرى فى أفلاكها بمقدار . حتى لكنت تكاد تلمس أثر جاذبيتها بعضها لبعض . فكبرت ريفتنا لله ودهشت الزنجية أيما دهشة !

وهنا كاد يصيبهما جنون وكلت حواسهما عن وعى بقية المشاهد . فأريدهما رحمة . وغاص ماحير ألبابهما من المناظر المدهشة فى لحظة . فقالت الريفية لزميلتها « رأيت كل هذا ؟ »

فقالت الزنجية « نعم . . ولو احتملنا لرأينا أكثر »

الريفية « من تظنين قد خلق هذه الأشياء وغيرها ؟ لعل اليونانى سيقول أنها خلقت من تلقاء نفسها ! »
الزنجية « ما أظنه يقول غير ذلك »

الريفية « إذن لأصبحت جميع هذه الأشياء واجبة الوجود لا تحتاج الى علة تعطيها الوجود »

الزنجية « لكنى لا أفهم ! »

الريفية « ألا تعلمين أن كل شيء علم لدينا قسمناه الى ثلاث ؟ أشياء واجبة الوجود وأشياء مستحيلة الوجود وأشياء ممكنة الوجود »
الزنجية « اعلم هذا ولكن من يدرينا أن العالم أزلى قديم لم يحتاج الى علة فى وجوده ؟ »

الريفية « إذن لكنت له القدرة على ايجاد نفسه ومن اتاحت له هذه القدرة فليس من المعقول أن يهب نفسه حياة ثم يسلبها من نفسه فيلحق به العدم والفناء . وأنت ترين أن ليس بالعالم ما يدلنا على أنه لا يفنى »

الزنجية « بل آثار فنائه تظهر كل يوم بالموت والانحلال والعطب وغير ذلك »

الريفية « حسنا . ثم أن هذه الأشياء لا تفنى فى وقت معا . أى أنها أجزاء مختلفة وكثيرة لكل منها ميعاد وميقات يوجد فيه ثم يفنى فهل من المعقول أن يكون واجب الوجود - الذى له قدرة ايجاد نفسه . أجزاء مختلفة ؟ »

الزنجية « ولم لا ؟ »

الريفية « لو كان أجزاء لا ستانزم ذلك وجود جزء منه قبل الآخر
أى أن بعض أجزائه وجدت من العدم . فتكون جملة سببا في وجود
جزء منه »

الزنجية « لكن معظم ما نراه فى الأرض له أسباب أوجدته
كالفحم فى جوف الأرض ، سببه اندثار الأخشاب وطغيان الأرض
عليها فدفنت فيها وتحول الخشب على مر القرون من أثر الضغط الذى
فوقه والسخونة الى الفحم »

الريفية « أذن فليست الأرض بناء على ماتقدم أو الكون كله
بالقياس الى الأرض واجب الوجود ولا بد أذن من خالق أوجده ..
هذا ما يقبله العقل . وهذا الخالق لا بد أن يكون قويا قادرا لا يتغير
كذلك يكون وحدة غير مجزأة ؟ »

الزنجية « هذا معقول »

الريفية « فقد اتفقنا انه لا بد وان يكون هناك اله مسيطر قديم
أزلى حى . وهب العالم وجوده والحياة التى فيه .. هذا هو الله عز وجل
فانبسطت أسارير الزنجية وقالت « هذا صحيح والآن أستطيع أن
أقع هذا اليونانى لو قابلته ثانية .. ولكن .. آه تذكرت لقد قال لى .. »

ولم تتم كلامها حتى هزتها ريح عاتية تستشعرا منها خوفا . وكان شيئا بعثها على الضحك الشديد ، وحملها الريح في أمان الى قصر معلق لد لون السماء في وضوح النهار ، وهبطتا على بابه ، فاذا الباب من البللور الأخضر يرى خلاله ماء يجري في شرايين حمراء منسقة الأوضاع . وأخذ الباب ينكمش الى أعلى في حركة لطيفة ثم يهبط ممتدا حتى العتبة وانتزتا فرصة انكماشه ودخلتا بهوا واسعا حوى العجب العجيب من الطرف والفرش الوثيرة . سارتا قليلا فمرتتا بأنواع الفاكهة مدلاة بخيوط من حرير . فرفعت صاحبتانا طرفهما الى حيث تتدلى تلك الخيوط ورأتا سلسلة فضية دقيقة تنزل من القمر وقد علق فيها القصر العظيم . وشد مادهشتا عندما سمعتا ألحانا موسيقية ، ودت الأذان لولم تفارقها الى المدخل المرصع بالماس والياقوت والآلىء الأخاذة فاتتهيتا من هذا المدخل الى حجرة أشملهم عطرها قد كتب على حائطها الأمامى الآية الآتية . وقد كتبت بالأبنوس المحلى بالماس البراق : -
« هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ان فى ذلك لآية لقوم

يعقلون وما ذرا لكم في الارض مختلفا ألوانه ان في ذلك لآية لقوم يذكرون »

وارتفع الحائط مختلفيا فرأنا سردابا ارضه لينة . ما أن وطئتها حتى انزلقتا الى بعد سحيق واستقرتا على أرض ثابتة خضراء فرأنا شيخا وقورا لاحدود للمأبج فذهلتا عن شكله الناصع البياض الى ما يقول فسمعنا الآيات الآتية : -

« وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون والقي فى الأرض رواسى أن تمد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون وعلامات وبالنجم هم يهتدون أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون »

وهبط بهما نسيم لطيف الى حيث كانتا أول مرة فنظرت الزنجية للريفية نظرة ملؤها الاكبار والدهشة . وتبادلتا حديثا قصيرا يفهم منه أن الزنجية قد ارتاحت كثيرا لما رأت ووعدت بأن تحكى لزوجها ما شاهدت . وفى هذه اللحظة همس فى أذنها صوت يقول « وماذا يضيرك لو كنت فاسدة ؟ » فتذكرت قول اليونانى وقالت للريفية « همس اليونانى فى إذنى الآن قائلا (ماذا يضيرك لو كنت فاسدة) »

فقلت الريفية « يضيرك أشياء كثيرة . فالفساد معناه عصيان أوامر الله وعصيان أوامره لا يسلم من عقاب الآخرة . علاوة على انه تلحق الضرر بالجسم والعقل والمال ويفسد المجتمع . ويمحو كل اثر للفضيلة ولا تبقى سوى الرذيلة ماثلة شنيعة . فتصورى مجتمعا كل أفرادهِ لصوص زنادقة سفكة للدماء لا يعرفون العفة الجنسية ولا الامانة ولا الوفاء ! اذن لما بقى للفرد امان على ماله وعياله وزوجه ومتاعه وصحته . هذا اقل مايضير المجتمع الفاسد الذى تسير الشهوات ولا يردعه الدين والعقل .. »

فأومات الزنجية برأسها أن قد اكتفت . وقفلتا راجعتين ، وقد شعرت كل منهما براحة ضمير ونقاء سريرة . وبدأت المحبة تجد مدخلا الى قلب الزنجية . حتى وصلتا الى البيت فلقيتا الكاتب واقفا على الباب ينتظرهما بفروغ صبر ، وبادرهما القول « لقد وجدت اشياء كثيرة وسمعت اشياء كثيرة انا والبيضاء فى المنزل فادخلا لأقص عليكما »

ولما قص عليهما ماشاهد مع البيضاء كان هو بالدقة جميع ما شاهدته الريفية والزنجية فى هذه الليلة . فأخذ منهم الدهش كل مأخذ . ولكنهم لم يقولوا الكلام . لانه اولا كان قد اعياهم التعب والسهر ، وثانيا كان لما شاهدوه حظ كبير من تصديق نفوسهم . ففضلوا النوم ، وذهب كل الى مخدعه ، حيث كان الجو يشعر بالبرودة ، فاغلقوا النوافذ

وراحوا في سبات عميق لم يفقههم منه سوى آذان الفجر ، يعلو من
حناجر المؤذنين ! وتسبح العصافير في الفجر وهي ترسل تغريدها في
الفضاء معلنة انكاش الليل وطغيان النهار .



« ١١ »

وأصبح الصباح نديا . وعادت ريفيتنا من الخارج بعد أن ملأت جرتها كعادتها ، ونادت أصحابها الثلاثة إلى فناء الدار لترتيبهم كيف يحلب البقر ، وكيف تستخرج الزبد والجبن من لبنها . وبعد تلك المشاهدة الطريفة ، استأذنت ريفيتنا لمدة عشرة دقائق لتؤدي صلاة الصبح في حجرتها . ثم عادت فوجدت الكاتب الشيخ متوعكا قليلا . وفضلوا أن يستريحوا بالمنزل هذا اليوم . بعد أن وعد الكاتب ان يقص عليهن حكاية الزنجية مع العالم النفساني ، ليرفه عن نفسه ، ولتكون تلك المخاطرة مداعبة اليوم . وبعد تناول الافطار المكون من اللبن والشاي والزبد والعسل الأبيض . أشعل الكاتب سيكارتة وقال

[كانت الزنجية تجرى بسرعة على اثر سماعها صراخا شديدا بالغابة صدر من عجوز يدعى أنه نبي . ولما افادت من جريها ، سمعت صوتا صادرا من رجل كبير السن ، يلبس نظارة ويجلس على كتلة خشبية مغضنة ، وقال الرجل لها « ليست مخاوفك ورجاؤك سوى أوهام فقد سيطرت عليك حالة رد فعل » لاسيما وقد تعودت أن تسمعي هدير الأسود — التي تعيشين حياتك بينها — مصحوبا بتوقع خطر

ميت . فلما نهق هذا الحمار العجوز الخرافى بصوته الأاجش ، طارت
مخيلتك إلى أعلى فاسرعت الى الجرى دون وعى .. لقد استغرق منى
هذا الاستكشاف خمسا وعشرين سنة فى بحث متواصل ، قطعت
أثناءه امخاخ كلاب كثيرة . وكنت اخرق فكوهم بدلا من خرق
الستهم لأراقب بصاقهم على اثر جريان ريقهم .

وترين الآن ان العالم أجمع خاضع تحت قدمى ، معجب بهذا
التحصيل الاكبر ، ويلهج بالشكر لهذا الضوء الذى غمرت به معضلات
الخلق الانسانى »

وقالت الزنجية « ولم لم تسألنى ؟ لكنت أدلك على هذا فى خمس
وعشرين ثانية دون أن تؤذى هذه الكلاب .. »

فقال لها العجوز القصير النظر « إن جهلك وشجاعتك فاقا كل
كلام .. لقد كانت الاطفال تعرف هذه الحقيقة . ولكنها لم تتحقق
نجريديا فى المعمل ، لذلك لم تكن معروفة علميا على الاطلاق فوصلت
لى كفكرة غير مهذبة ، وقدمتها للعلم ناضجة .. هل لى ان أسالك ان
كنت قمت بتجربة قط ؟ » . [

قال الكاتب هذا لمستمعاته وضحك ساخرا وهو يقول « لقد ظن

هذا العالم أن زوجي بلهاء غير متعلمة ، وهو يسألها ان كانت قد قامت بتجربة قط . ولكنها اجابته بسرعة قائلة [« قمت ببعض التجارب . وسأقوم الآن بواحدة . تعرف علام تجلس الآن ؟ »] فأجابها قصير النظر « أجلس على كتلة خشبية رمادية مغطاة بألياف شجرة بالية »

فقالت الزنجية « إنك مخطيء . . فانظر تر انك جالس على تمساح نائم ! » وصرخ الأستاذ صرخة يحسده عليها الكثيرون . وقفز حالا الى شجرة مجاورة يتسلقها كالقط بنشاط غريب ، يعتبر بالنسبة لهذا العجوز ، فوق طاقة البشر . ثم التفتت اليه الزنجية قائلة « انزل . فقد كان عليك أن تعرف أن التماسيح لا توجد الا بقرب الأنهار . لقد قمت معك بتجربة فقط . . هيا انزل » [

وصل الكاتب في قصته الى هذا الحد والتفت الى الزنجية ، فالتفتت الفتاتان اليها فوجدتاها وعلى فمها ابتسامة الخيلاء ، كأنها أتت أمرا مستعصيا فهي تفاخر وتزهو به . ثم واصل الكاتب حديثه قائلا [فقال لها الأستاذ والدموع تنهمر من عينيه « لا أدري . . هذا كفيل بأن يجعل الإنسان يؤمن بالمعجزات . . ما كنت أستطيع تسليق هذه الشجرة . ولكني هنا الآن ولا قدرة لي على النزول »

فقلت الزنجية « تجربة مسلية أليس كذلك ! »

فزجر قائلاً « إنها تجربة قاسية مريبة أيتها الخاسرة . هل جال
بفكرك أن تقتليني ؟ هل تظنين انه يمكنك أن تأمنى رد الفعل الخطر
على القلب اذا اصبحت هذا التركيب الجسماني الرقيق بهزة عنيفة مثل
هذه ؟ لن أستطيع الجلوس على كتلة خشبية أيام حياتي الباقية ! اعتقد
أن نبضى غير طبيعى حتى لا أستطيع عده . إنى اذا حاولت ترك هذا
النصن فسأسقط كالحجر ! » وقالت الزنجية فى هدوء « أظن ان السحر
الافريقى اقوى بكثير من تقسيمك أنماخ الكلاب . كلمة واحدة
جعلتك تتسلق الشجرة كالقط ، حتى اعترفت انها معجزة ! »
وهمهم العالم قائلاً « هل لك أن تقولى كلمة أخرى انزل بها ؟ يالك
من ساحرة سوداء ! »

قالت « سأفعل . فانظر تر ثعبانا يشمشم خلف رقبتك » وما أن
سمع هذا حتى كان قصير النظر على الأرض فى الحال « ثم قال « أعرف
تماماً أنك اخترعت الثعبان لتخويفى . لذا فانك لم تخدعنى هذه المرة »
فقلت « وعلى الرغم من هذا فانك خفت كأنه ثعبان حقيقى »
قال مكابراً « كلا لم أخف مطلقاً ! » فقالت « ولكنك سقطت كأن
قد خفت » ولما شعر بالطمأنينة قال مستجمعاً شجاعته « هذا مدهش !

لقد كان إنعكاسا متحكما في بشدة عجبنا ! هل أستطيع أن أجعل الكلاب
تتسلق الأشجار ؟

قالت « لماذا ؟ »

فقال في دهشة « لماذا الاضع أساسا عليا لتلك الناحية » . غير
أن الزنجية اجابته قائلة « هراء . أن الكلاب لا تستطيع تسلق الشجر »
فقال لها العالم « كذلك أنا ما كنت لأستطيع لولا مؤثر نتج من توهم
نمساخ . والمهم الآن كيف أجعل كلبا يتوهم تمساخا ؟ » فقالت « عليك
اذن ان تعرفه ببعضها » قال « هذا الامر كثير التكاليف . وليس أسهل
من شراء الكلاب ، لكن التماسيح امرها عسير وتكاليها أعسر لكن
لا بد لي من أن أبحث هذا الأمر جديا » [

وما ان انتهى الكاتب الى سرد هذه الحادثة حتى اغرق الجميع في
الضحك . وفضل الكاتب ان يكتفى من المخاطرة بهذا القدر ، لأن
القهوة كانت قد اعدت واخذ الجميع يتناولونها بين السمر الطريف
والنكات المباحة ...

وأراد ثلاثة الضيوف من ريفيتنا أن يزوروا القاهرة ، فاشتطت
عليهم الا يزوروا منها سوى المقابر . وأما بقية المدينة فيمروا بها مرّ

الكرام . ولما سألوها السر في هذا الشرط قالت « أخشى ان تفتنكم المدينة ، لأن ظواهرها خلافة فاسدة ، وهي أقرب الى غرائزكم البهيمية ، والناس في هذه الايام أطوع لغرائزهم الوحشية من عقولهم . سيما وأنتم لا زلتم مترددين ، لكم من تعصبكم الأهوج لكل ماهو حديث قوة لا يستهان بها ، وضلالة لا مزيد عليها »

وهبطوا القاهرة ليلا فاسرعوا الى مقابر الامام الشافعى ، حيث كانوا الأحياء الوحيدين في مدينة الموت . وكأني بالأموات يشفقون عليهم كل الأشفاق ، ويبكون لحالهم كل البكاء ، كما يشفق الأحياء على الميت المسجى بين جدرانهم كل الأشفاق ، ويكون لحاله كل البكاء ، والكثير من الناس بل غاليبتهم الساحقة يخافون المقابر ليلا . ويتجاشونها نهارا ، وترتعد فرائصهم منها فرقا وهلعا

وفي الحق انهم لا يخافون الأموات الذين في المقابر ، إذ لن يقوم هؤلاء . ليشبعوهم ضربا ! وهم كذلك لا يخافون تلك الأبنية المتواضعة ، التي يكسوها الليل مسحة رهيبة من السكون ، إذ لن تقوم هذه الأبنية ضد آدميين ! وهم أيضا لا يخافون السكون والظلمة في ذاتها لأن السكون والظلمة لن يمسا الإنسان بسوء ! أذن مم يخافون ؟ إنهم يخافون الموت في ذاته بل . ويكرهونه أكثر الكراهية ، وبمقتونه أشد

المقت . يخشى الإنسان الموت في ظل الأموات ، وفي ظل المقابر ، وفي ظل سكون الليل وحللكته ! فهنا يتضائل الإنسان إلى أقله مهبطا كان قويا جبارا ! وهنا تظهر نهاية كل شيء ، بأجل معانيها ! وهنا يتجسم الهدى والضلال لكل ذى عينين بل لكل أعشى البصر !

ووراء كل هذا تتجلى قدرة الله وجبروته كأعظم ما تكونان شأننا وأثرنا في النفس . وبالجملة فكل ما يحيط بالكائن الحي هنا ، السنة شداد ورموز صعب ، تنبعث من الحجارة ومن الأديم ومن العظام ومن الخرق البالية ومن السماء ومن الهواء ومن الظلمات ومن السكواكب أجمع ، وحتى من أنفاس الأنسان نفسه ، كل تلك الألسنة وهذه الرموز تصرخ بأصوات حادة نفاذة ، لا يعوقها في طريق النفوس عائق ، ولا يقصمها عن الأحساس شيء ! كلها تقول فتصم الأذان بما تقول ، وكلها تشعر فترجف الحس بما تشعر ، وكلها تنطق فيفارق الجسم لما تنطق . وليتها تقول كثيرا أو تشعر كثيرا أو تنطق بالكثير لكنها لا تقول ولا تشعر ولا تنطق الا كلمة واحدة هي الموت ! والموت كلمة ومعنى يعرفها الإنسان حق المعرفة !

ليس بمدنية الموت سوى شيء واحد هو الموت ! والإنسان يعرف حقا ما هو الموت ! وهكذا سار أربعتنا كل ينظر إلى صاحبه ثم إلى

ما حوله من أشياء ! وإذا استطاع إنسان أن ينفذ بصره الى نفوسهم لوجد ما ولا يشغلها سوى إحساسات مختلطة كلها خفيف : هي خوف من الموت ، وندم على ما فات ، وجزع من العقاب ، ويأس من رحمة الله وغير ذلك . لكن ريفتنا كانت تخالفهم كثيرا . فقد سيطر عليها خشوع كثير واطمئنان كبير ، وثبات وأمل لا مزيد عليها . والقلب العامر بذكر الله ، العارف لفضله وجبروته ، لا يكون إلا كقلب ريفتنا هذه .

وانطلقت ريفتنا تقول « لا تزال السبل مهيودة للرجوع . ورحمة الله أوسع من أن تضيق بكم ، وليس إلا التوبة مدخلا رحبا واسعا اليها » وكأن كلامها جرح كبرياء الكاتب العنيد فتنبه الى نفسه ، يحاول تهدئتها قائلا « يافئتي . هل ظننت أنا نخاف . . كلا وحق مدنيتنا . انا أقوياء وعقائدنا أقوى ! » فقالت له البيضاء وكانت اقربهم الى حالة الريفية « إنك تكابر ويلوح انك توهم نفسك بالثبات ورباطة الجأش ، وأجدر بك الا تخاف فتكر على نفسك ذلك ، بل تعرف الحق فتطمئن اليه وتتخذ نبراسا يضيء أمامك الطريق ، وتغذيه بذكائك وقواك العقلية وقدرتك الأدبية في وضع الروايات والقصص تضمنها آراء صالحة »

ولما هم الكاتب بالكلام هددته الزنجية بعصاها فسكت وبدأت تسرد إحدى مخاطراتها الهامة قائلة وقد انصت الكل . [قابلت رجلا جالسا على بئر ذهبت لأشرب منها فقدم لي كأسا مملوءة فشربت ، ثم أخفى الكأس بطريقة عجيبة كأنه ساحر . فقلت له « يالك من ساحر عظيم ! وأغلب ظنى انك تستطيع ان تقول شيئا لفتاة سوداء . إني ابحث عن الله ، فأين هو ؟ » فأجابني الساحر قائلا « انه فى روحك كما انه فى روحى أيضا » فقلت « أعتقد ذلك ولكن ما هو ؟ » فقال « هو أبونا »

[فقلت وقد فكرت قليلا ثم تجعد وجهى عن الدهشة « ولم لا يكون أمنا ؟ » ودهش بدوره وقال « ان أمهاتنا يحتجن اليناكى نقدمهن لله . ولو كانت أمى هى التى وجهتنى ، لكنت الآن رجلا غنيا بدلا من فقير جوال . لكنى ما كنت استطعت أن أجد الله » فقلت للرجل « لكن أبى كان يضربنى دائما فى حدائتى ، وحتى صرت من الكبر بحيث كنت أستطيع أن أضربه بعصاى . وبعد ذلك حاول أن يبيعنى لجندي أبيض ترك زوجته وراح يعبر البحار ! لقد كنت دائما أرفض أن أقول « أبانا الذى فى السماء » فكنت أقول « جدنا الذى .. » وهكذا ترى انى لن اقبل قط إلها هو أبى »]

وهنا قالت البيضاء — لقد قابلت نفس هذا الرجل الذى تحكى عنه الزنجية . فلما علم منى أن أبى كان يتركى ليلعب الجولف ولا يعنى بشئونى كثيرا قال الرجل « لم يكن هذا ابيك قط كما لم يكن إهلك ولو كان أكثر بك برا ، لكان أقرب شئ لله ، ولو كان أبابارا كاملا لكان أشبه بالله تماما » هذا ما قاله لى هذا الرجل الطيب

فقلت الزنجية محتدة قليلا « أرجوك ألا تقاطعيني . انتظرى حتى أتم كلامى أو اترك لك المجال » وتدخلت ريفيتنا قبل ان تتفاقم الحالة ويصبح الأمر أصعب من أن يوجد له حلا . فاعتذرت البيضاء وقالت الزنجية [ولما سمع الرجل كلمة « جدنا » ابتسم وقال « لكن هذا لا يمنع ان يحب بعضنا بعضا كما يحب الأخ اخته » قلت « لكن المرأة لا تحب أخاها . فان قلبها يتجه نحو شخص آخر كما يتجه قلبى نحوك » ولما سمع الرجل هذا الكلام ورأى انى ضيقت عليه الخناق قال « حسنا فلنسقط العائلة من الحساب . لقد كان ما قلت على سبيل التشبيه فقط ، لسنا الا اعضاء فى جسم إنسانى واحد ، لذلك فكلنا عضو من الآخر .. دعينا نتفق على هذا . هه ! » قلت « لكنى لا استطيع . فقد اخبرنا الله انه لا شبه بينه وبين الاجسام والآباء والإامهات والاخوات والاخوان]

فقلت الريفية - هذه إجابة حسنة جدا غير أنه لا ينبغي أن تنسى

أن لله السيطرة على الكائنات جميعا ، لذلك فهو شديد الاتصال بها جميعا .
لكن لا تؤاخذيني على مقاطعتك .. أتمنى .

وابتسمت الزنجية وراحت تواصل حديثها قائلة [عند ذاك قال
الرجل « كل ما فى الأمر أن ذلك على سبيل التعبير عن حبنا بعضنا
البعض . فلتحبي من يكرهك ، ولتساخى من يسبك . ولا تنسى أن
أسودين لا يعملان أيضا » فقلت له « لكن لا أريد أن يحبنى الناس
جميعا ، فليست أحب كل إنسان علاوة على أنى لا أريد ذلك ، وقد
أخبرنى الله إلا أؤذى الناس بعصاى لمجرد كراهيتى لهم - إن حدث أن
كرهونى - كما لم يعطهم الله حق إيدائى .. وقد جعلنى الله أكره كثيرا
من الناس ، ولا شك فانه يوجد من الناس من يجب قتلهم كالنعايين
لأنهم يسرقون ويقتلون الآخرين » فقال الرجل متأففا « لا أرغب
أن تذكرينى بهؤلاء الناس لأنهم ينفخون حياتى » فقلت « إنه لما يحسن
الأمور أن ننسى ما لا يسرفها ، ولكن ذلك لا يجعل الخطأ صوابا ،
ولا يدفع بالإنسان إلى الاعتقاد بها .. هل تحبنى حقا وباخلاص ؟ »
قال على الفور « لا تجعلها مسألة شخصية بيننا ! » فقلت « ولكنها تفقد
معناها إن لم تكن مسألة شخصية . هب أنى قلت لك أنى أحبك - كما
تريد منى ذلك - فهلا تشعر أنى أشاركك حريتك ؟ » فقال الحامى

مطلقا . ويجب أن تفكرى فى هذا ، فبالرغم من أنك سوداء وأنا أبيض
فكلانا يتساوى أمام الله الذى خلقنا » [

وهنا اشمأزت الريفية من الزنجية لما نعتت المسيح بأنه حاوى ،
فاستأذنت منها وقالت « إني لا أحتمل أن تنعتى رسولا من رسل الله
بأنه ساحر (أو حاوى) فان ما قام به عيسى أمام الناس بما زعموا أنه
سحر ، هو معجزات من عند الله صادقة . وقد كان لابد من تلك
المعجزات حتى يؤمن البشر بأن الشخص الذى أمامهم مرسل من عند
الله . ولكل رسول معجزاته الخاصة تبعا لما يلائم عصره وأمه . .
ليس ذلك سحرا كيف تستكثرون على الله أن يهب عبدا من عباده
قدرة خارقة ثم لا تستغربون اللاسلكى والتليفون وغيرها من القوى
التي اكتشفها البشر ، والقياس مع الفارق الكبير طبعا ! يا للاثناس
لا يجد ساحة للتمرد الا اتهمها ، ولا أسهل عليه من تكذيب ما
يضيق عنه فهمه وتصوره .

« دعينا من هذا الآن فان لى معك كلمة عن فكرة التساوى أمام
الله . عليك أن تعرفى أن إنسانا لا يفضل الآخر الا بالتقوى . . هي
أنك ملكة ذات سلطان واسع وثروة ضخمة وعز وسؤدد ، ولكنك
مع هذا فاجرة . ثم هي أن إنسانا ما فقير معدم ولكنه رجل صالح

فهل تتساويان أمام الله ؟ مطلقا . فهو بلا شك أفضل منك وأكبر مشوبة . ولسلك منكما جزاؤه بناء على ما قدمت يداه »

وفي الحال اهتزت الأرض تحب أقدامهم ، ورأوا حجارة المقابر تتوهج . فانكمشوا يسند بعضهم بعضا ، حتى علا في المكان دوى أشبه بقمقهة من حنجرة ذات صوت جميل . وأخذ النسيم يتقابل ويتلاقى ، ثم يستوى على الأرض منتصبا في شكل ستائر تتراص متوازية وراء بعضها البعض . وقد اتخذت كل منها لونا من ألوان الشفق صافيا ، ترى العين خلف الستائر قرصا كبيرا مائلا كقرص الشمس لونه أخضر يانع لا تتقذى العين من رؤيته . واختفى كل بناء حولهم ، وصار الأديم مستويا خطت عليه نقوش بديعة الهندسة . وكأن مواضع من هذا الأديم قد ركبت فيها أحواض من فسيفساء ، تترقق فيها عجينة زاهية . وكانت حوائط الأحواض لا تستقر جزئياتها على حال وهي دائمة الحركة ، دائمة التشكل . وهي تصدر في حركتها أنغاما موسيقية هادئة خافتة تشنف النفس قبل أن تعيها الآذان .

وكان شيئا رفع أبصار أصحابنا الى السماء ، فأروها زرقاء تتلألأ فيها النجوم . وكانها (النجوم والسماء) تهبط عليهم ، لولا عمد من ماء كاللجين ارتفعت من الأرض فاستقرت السماء عليها . وتدلّت

أمراس من لؤلؤ علققت فيها ثريات ، أخرجت أشعة منظمة عكسها
القرص الأخضر فبدت عليه ترسم بالأشعة الآية الآتية : -
« إن أكرمكم عند الله أتقاكم »

وتضاءلت الأنوار قليلا ، وحل محل القرص كرسي خشبي جميل
جلس عليه عربي وضاء الجبين مرسل اللحية السوداء قليلا ، تعبر هباته
عن رجولة كاملة . وكان يقول لعرب جلسوا أمامه
(لافضل لقرشي على حبشي الا بالتقوى)

(حديث شريف)

وزال كل شيء على الأثر ، وجلس الجميع (الاربعة) على حجر
قبر كبير . ووجدت الزنجية زوجها الكاتب يرتعد فتقربت منه تداعبه
وتلاطفه بأن تداعب ذقنه بأصابعها تزيح عنها التراب . ثم التفتت
الى الريفية وقالت « سأتم لك قصتي عسى ان يحدث شيء آخر . فانه
بعد أن قال لي هذا الرجل - ولاحظني اني سأحترمه من الآن فصاعدا -
لما قال اتناكلنا سواء امام الله قلت له [اني لا أفكر في هذا قط ، فقد
نسيت حين تكلمت أنتي سوداء وإنك لست سوى ابيض فقير .
فلتظني ملكة بيضاء وانت ملك ابيض ! ياالله ماذا حدث لك ؟ لم تهتم
مندهشا ؟ » فقال « لا شيء .. لا شيء .. أوه .. حسنا فأنا افقر الفقراء

البيض ، على انى ظننت فى نفسى أنى ملك . ولم يكن هذا الظن الا حين
أورثنى فساد الناس الجنون » فقلت « لا تخجل فقد رأيت ماوكا أسوأ
منك حسنا : فلتكن الملك سليمان ولا تكن ملكة سبأ . تماما كما جاء
فى الكتاب المقدس . وهب انى جئتك أقول انى احبك فمعنى هذا
انى جئت لأسيطر عليك .. أحبك حب اللبوة فأنتشك لأجملك جزءا
من كيانى . بعد ذلك ان تفكر فيما يرضيك بل فيما يرضينى وحدى .
فانى فى هذه الحال سأقف بينك وبين نفسك ، بينك وبين الله . أفلا
يكون ذلك ظلما فظيما ؟ الحب ياعزيرى شىء ملتهم ، هل تستطيع ان
تتصور الجنة وقد ملئت حبا ؟ » [

وهنا قاطعتها الريفية قائلة وهى تضحك — إنك تسخرين بالحقائق
سخر زوجك من وقوف الناس على أرجلهم .. ياعزيرتى متى كان
الحب جشعا وسيطرة والتهاما ؟ أظن انك تعلمين ان الحب تضحية
وخضوع وبذل .

وبدا السرور على وجه البيضاء حين قالت — هذا ما قتلته لها
بالضبط فلم تصدق .

وعلمت الريفية على كلام البيضاء قائلة — ولكن ينبغى الا تنسى
ان هذه التضحية والخضوع والبذل ، لم تصدر الا عن أنانية الانسان

التي تحيط بجميع اعماله . إنى لأعجب من هذه الغريزة وسيطرتها
على النفوس .

وقالت البيضاء — وكيف تصدر كل هذه الفضائل عن الأنانية
وهي رذيلة ممقوتة ؟

فأجابها الريفية — لاشك أن الإنسان يحب ذاته أكثر من أى
شئ آخر . وهو اذا احب شخصا ما عمل أولا على إرضاء نفسه عن
طريق هذا الحب بشكل غير مباشر ، فهو يبذل ويضحى ويخضع
ليرضى المحبوب فينال أكبر قسط من المتعة ، وهذا هو ارضاء الذات
أى الأنانية .. لكن ليس هذا بحاله .. واصلى أيتها الزنجية حديثك
لئلا تترك قطار الليل الى الفيوم .

فقالت الزنجية — قال الرجل بشجاعة يشوبها القلق [« ليس فى
جنتى سوى الحب وماذا عسى ان تكون الجنة الا الحب ؟ » فقلت
انما الجنة هى النصر .. إنها بيت الله ومهبط أفكاره » ثم قلت « وقد
علمتني معلمة الارسالية الدين وتحدثت عن الحب ، لكنها هربت من
جميع أحبابها لتفرغ لعمليها الالهى . كذلك يحول البعض أعينهم عنى
الا إذا أحبوني .. وهناك جمعيات من الرجال والنساء وهبوا انفسهم
لاداء الواجب نحو الله . وهم لا يكلم بعضهم بعضا بالرغم من أنهم

يسمون أنفسهم إخوان وأخوات» فقال الرجل «لهذا سىء جدا عليهم»
وقلت «إنها غباوة بالطبع فعلينا ان نعيش مع الناس أحسن عيش
ممكن، ولكن هل يبدو الآن ان أرواحنا أكثر حاجة الى الوحدة
من حاجة أجسامنا الى الحب؟ اننا محتاجون الى مساعده بعضنا
البعض بأجسامنا وأرواحنا، لكن أرواحنا تحتاج الى ان تكون
وحدها مع الله. ولما يأتيك الناس محتاجين الى روحك وجسمك
وعقلك فانك تقول (قفوا في إمامكنم فاني ملك نفسي ولست
ملككم) فحبك هذا ليس أكثر من تهكم أذع لي وانا ابحث عن الله
منه لبطل يحارب ضد العبودية والقتل! فقال «هل اقول إذن
(هذه الوصية اقولها لكم معشر المقاتلين) أم ماذا؟»

[فقلت «إني لا أبحث عن وصايا بل أبحث عن الله» ومن ثم قام
«واصل بحبك إذن والله يربحك لكن يجب أن تمرى بي أولا حتى
تجدي» ومن ثم اختفى فأسفت لفراقه لأنه رجل طيب»]

واتمت الزنجية الحديث فقالت الريفية للكاتب في أسف شديد -
لقد أخطأت كل فكرة عن الرجل، ولست وحدك المسئول. فهناك
التبعة الكبرى تقع على من اشتركوا في كتابة كتب مقدسة لكم من
متاج عقولهم، قدموها للأجيال متضاربة الآراء. ولا غرابة فقد فهم

الرجل كل من تلاميذه فيها مستقلا وصوره كما فهم ، ثم تعاقبت الأجيال تناول كتبهم بالحذف حينا وبالإضافة حينا آخر وبالتشويه حينا ثالثا . ثم حاول القرن العشرين ومن قبله التاسع عشر أن يوحد هذه الآراء فكان تبديل وتغيير ، ليستطاع تقريب الحقائق وتوليفها ليزول منها عيب التناقض .

فقال الكاتب - هذا صحيح ولكن الجوهر لم يتغير .

وقالت الريفية - كيف لم يتغير ؟ وهل قال لكم المسيح أنه ابن الله أو أن الله أبونا جميعا ؟ لم يقل وإنما افترىتم عليه . وما كان الا رسولا كرمه الله برسالته . وهل من المعقول أن يخلق الله أولادا ؟ لكان إذن للائنياء أو البشر صفات الله وأحواله وأفعاله ! والا فهل يلد المرء عصفورا أو العنزة حملا ؟ هذا مستحيل كما أن نكون أبناء الله وليس لنا من كنهه شيء . حتى أنا لا نستطيع دفع الضر عن أنفسنا كما لا نستطيع أن نحيا حياة فاضلة كاملة . وأنت تعلم أنه ما من نبي إلا واضطهد ، وما من نبي إلا وزهد ، وما من نبي إلا وصرح أنه مخلوق كباقى البشر ، غير أنه مقرب عنهم ، مكرم لرسالته . وإن كانت رسالة عيسى قد بدت لك ناقصة ، فقد كانت أصلح شيء لجيله والأجيال من بعده . حتى جاء محمد برسالته ، وقد اختتم الرسل ، فكانت رسالته

صالحة لجميع الأجيال وإن لم تختلف في جوهرها مع أية رسالة أخرى .
وما أن أتمت ريفيتنا حديثها حتى رأت أربعة خيول مطهّمة
ناصعة البياض وقفت أمامهم فركبوا . وحملتهم الخيول إلى مكان فسيح
اجتمع فيه ناس كثيرون يلغظون ويسخرون . وهبطت الخيول
باصحابنا على أربعة من الكراسي المرمرية اللينة . فلما جلسوا ظنوها
عجينا ستلصق بملابسهم غير أنها لم تمسسهم بسوء . وما أن جلسوا حتى
سكت الناس جميعا وارتفع صوت جميل جدا أسمعهم الآية الآتية :

« وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه بل عباد مكرمون »

ارتسمت الدهشة على الوجوه . وضحك القوم الذين أطل عليهم
القمر في هذه الساعة المتأخرة من الليل . وراحو يندمورون على
ما افترضوه . ونظر أربعتنا حولهم فاذا المنظر قد تلاشى ، وإذا صحراء
القبور تبدو حاملة راية العدم والفناء . وأخذوا يتصورون كيف كانوا
هؤلاء القوم الراقدين في الثرى ، أو الذين تفتت عظامهم وتلاشت
لحومهم ، فتكون منها هذا الأديم الذى يطأونه ، والذى صلح لأن
يزرع فيه بعض الموسرين رياحين وورودا ، ظنوا أنها للهوتى خير أنيس
وتذكرت . ريفيتنا قول أبى العلاء المعرى

خفف الوطأ ما أظن أديم الأ

رض إلا من هذه الأجساد

واستفسروها معنى البيت . فلما فهموه اضطربوا والحوافى الرجوع ولم ندر كيف وصلوا ولا كيف ناموا ! إنما ندرى أنهم قابلوا فى طريقهم صيادا يحمل على كتفيه كتدراثيه كبيرة . [فجرت اليه الزنجية لتساعده صائحة « حاذر يا هذا . فيخيل أنها ستقضم ظهرك العجوز المسكين » الا ان الرجل أجابها ضاحكا « لا عليك . فأنا الصخرة التى بنيت عليها هذه الكنيسة » قالت « لكنك لست صخرة ! وهى حمل ثقل جدا عليك » وكانت تتوقع ، بين اللحظة والاخرى ، ان تراه مهشما تحت حمله . لكنه قال « لا تخافى فقد صنعت كلها من ورق . وأخذ يرقص أمامها جاعلا جميع الأجراس تدق بنغمات سارة .

[وقبل أن يختفى عن البصر ظهر بضعة آخرون ، يلبسون ملابس بيضاء وسرداء ، كلها مضمنة بعناية ونظيفة جدا . وكانوا يحملون كنائس ورقية أصغر من الأولى وأقل جمالا . وكانوا كلهم يصيحون على الزنجية قائلين « لا تصدقى الصياد . ولا تصغى لهؤلاء الاخوان . فان كنيسةى أنا هى الكنيسة الصادقة » .

[وأخيرا كان على الزنجية ان تتجنب طريقهم . لأنهم بدأوا

يتراشقون بالحجارة . ولما كان غرضهم سيئاً كما لو كانوا عمياً ، فقد طارت الحجارة على غير هدف حتى ملأت الطريق [

وهكذا شاهد أصحابنا هذا المنظر المؤلم . فانشرح لرؤيته الكاتب وزوجه ، وأسفت لرؤيته البيضاء كثيراً حتى خجلت من نفسها ، ولم يكن من ريفيتنا إلا أن أشفقت على الجميع . وكما أسلفنا فانتنا لم يدر حقاً كيف نام هؤلاء ليلتهم هذه في مضاجعهم بالقرية ! وكان نومهم عميقاً شبه هنىء . ولم تسط عليهم الأحلام ولا أضغاثها ، ولعل السبب أن الأعصاب كانت جد متعبة ، كما تراخت الأجسام من الجهد فراح الجميع في سبات نوم عميق .





ولأمر ما بدت الزنجية في الصباح التالي مرتدية ثيابا نسائية خفيفة
ولسكنها تامة ، وراأت الريفية أن تذهب بهم إلى بركة قارون ، حيث
يقضون نهارهم في نزهة مائية لطيفة . ولم تكن البركة لتبعد عنهم أكثر
من نصف ساعة قطعوها راكبين حميرهم . ودار الحديث مقارنة بين
ما صادفوا في الأيام الفائتة وبين مخاطرات الزنجية ثم مخاطرات اليبضا
وأى الثلاثة أنفع وأقرب إلى الهداية . وكان النصر الأخير لريفيتنا
حيث كان الغرض الذى تدافع عنه باهرا واضحا لا يحتاج إلى برهان
علاوة على ما وهبها الله من حسن البيان وذلاقة اللسان ، وشدة إلمامها
بما يلهجون به من قديم الآراء وحديثها . ولما خشى الكاتب أن يعجز
أمام تلك الريفية الشديدة المراس قال وهو يعنى الريفية بأكبر قوله
« سأقص عليك شيئا لن تستطيعى دفعه ، وهو آخر ما وصلت إليه
المدنية ونظرياتنا . وما أظنك منتجين فهم شغل العلماء الشاغل ومقصد
الفلاسفة أجمعين في هذه الأيام ، لأنك صغيرة والأمـر صعب ! »
فأجابته بقولها « سبجان مخلف الظنون ! ومن يدريك أنى أسرع
منك فيها وأشد ذكرا ؟ »

وقال الكاتب « إذن فسأقص عليك مخاطرة صعبة صادقتها
الزنجية » ولما بدأ يقص حكايته نهق حمارة بشدة ، كأنه يحتاج على
ما سيقول راكبه . وارتجف الكاتب وسقط واقفا على أم رأسه فسر
من ذلك كثيرا . ولكن الرحلة كانت أشق من أن تتحمل الفتيات
سخف الكاتب ، فهددته الزنجية وفضلت الرفقة أن تستبدله حمارة
الشقى بحمارها الهادى فقبل . وتابعوا السير ، وبدأ الكاتب يقول
بعد أن استوحى ذهنه

[قابلت الزنجية جماعة من البيض يسمون أنفسهم (بعثة
العجائب) يحولون فى الأدغال الأفريقية . وكان معهم قطة من الحمالين
الزئوج سألت الزنجية أحدهم عن القوم البيض فقال لها « إنهم مغرمون
بالهراء : يضربون وقتهم فى التشاجر على التافه من الأمور ، وهم
لا يتناقشون الا لمجرد حبهم فى المناقشة »

وظنت الزنجية أن مبعث عجبهم ودهشتهم هو الله . والالماسموا
أنفسهم (بعثة العجائب) . ولكنهم ما سمعوا منها هذا الكلام حتى
استلقوا من الضحك . وقال أحدهم يعلق على قولها « لقد تخلصت بلاد
المدنية من هذه الفكرة من زمن بعيد حتى أن شكسبير ، وقد عاش
فى القرن الخامس عشر ، كان لا إلهيا » وقال آخر ردا عليه « بل الفضل

الأكبر في نبذ فكرة الألوهية يرجع الى القرن الثامن عشر ، وهكذا أخذوا يناقشون ويسردون أنواع الآلهة الذين قدمتهم الجمعيات الدينية وخصوصا جماعة البورجوازي [Bourgeoisie]

وهنا قالت الريفية في أسف شديد « إنى أضيق ذرعا بكل هذه الأضاليل ، ولو كانت الجمعيات التى تقولون عنها قد قدمت اليكم عددا مختلفا من الآلهة ، فليس ذلك إلا لأن تلك الجمعيات أخطأت فهم الكتب المقدسة على حقيقتها ، كما حاول كل فريق ان ينال السيادة والعظمة الدنيوية عن سبيل الدين ففسره بما يوافق مصلحته . ومن ثم كان تنازهم بعضهم البعض ، وكان تضليلهم لعقول الناس ، وكان المجال المتسع لذوى المصالح كي يدفعوا بالناس الى نبذ الأديان . وإلا فكيف يرضى العقل البسيط أن يتصور وجود إلهين أو أكثر في هذا العالم ؟ لو كان الأمر كذلك ، وكانوا جميعا قادرين ، لصار هذا النظام الدقيق المحكم فى تسيير الكون فوضى وتطاحن وشجار . فأن نفيت القدرة عنهم نفيت كذلك عنهم الألوهية . وإلا فكيف يخلقون وهم عاجزون ؟ هذه حقيقة بسيطة تقبل بالبداهة فى يقين حاسم ، ويتلقنها أطفالنا فى المدارس الأولية ١ ،

سمع الكاتب هذا فقال « إنك ساحرة اللفظ ، قوية المنطق

فارجوك أن تدعينا من هذا . فلست أقول إلا مشاهدة رأتها الزنجية بعينها »

وتدخلت الزنجية قائلة « هذا علاوة على أنى قلت لهؤلاء القوم أن آلهتهم الستة الذين سردوهم على ليس فيهم من أبحث عنه » وأومات الريفية علامة على الرضى ، ونهت الكاتب أن يتابع كلامه فقال] بعد أن أنكرت الزنجية آلهتهم الستة . أخذوا يلومون على المبشرين تعليمهم الزوج أموراً ليس لها ذرة من تصديقهم ، وأخذهم الحوار حتى قال قائل منهم « لم لا نلق إلى القوم بهذه الحقيقة البسيطة . وهى أن حدوث العالم كان خاضعاً لنظام الانتخاب الطبيعى وأن فكرة الألوهية ما هى إلا خرافة ! » فاعترض زميل له على ذلك بأن هذه الفكرة ستؤدى بهم إلى نظرية (البقاء للأصلح) . وتخوف القائل من قوة الزوج ونظافتهم وذكائهم قائلاً أن الزوج فى نظره أصلح من البيض للبقاء ، فإذا هم أطاعوا هذه النظرية فسوف يكون هلاك البيض على أيديهم .

وأخذ جماعة البعثة يتكلمون ويتناولون نظريات حديثة . يقول أحدهم أن هلاك البشر سوف يكون من شدة البرد لأن الشمس تفقد حرارتها يوماً بعد يوم . ويقول آخر وكان عالماً طبيعياً - بل

الشمس تزداد حرارة كل يوم ، فيعلق ثالث على كلامه بأن الهلاك في كلتا الحالين مؤكد سواء من البرد أو من الحرارة . ثم انتقلوا الى نظرية التطور وإلى الكلام عن العادات الموروثة والعادات المكتسبة وغير ذلك مما يلهمج به العالم الحديث من نظريات وآراء ، تزداد على مرور الأيام . وسئمت الزنجية حديثهم هذا فأنشأت توضح لهم بعد نظرياتهم هذه عن الهدى وقلة نفعها ، فأنصت اليها رجال البعثة . ومن ثم بدأت الغيرة تأكل قلب إحدى سيدات البعثة فأهابت بالزنجية أن ترحل وهبت تخرج مسدسها من جرابه لتقتلها به . ولكن الزنجية انقضت عليها بعصاها ، ورمتها على الأرض ولاذت بالفرار]

وانتهى الكاتب من كلامه متوقفاً أن يهزأ بريفيتنا ، إن كانت لم تفهم شيئاً من كلامه . ولاحظت الريفية بوادر الشبهة تبدو على وجهه فقالت « أغلب ظني أنك من أنصار كل هذه النظريات ، بل لك يد طولى وباع عريض في تأسيس بعضها ؟ »

فأجابها في زهو شديد « ترين أن جميع هذه الآراء مفيدة إن لم يعجز عقلك عن فهمها »

فقالت وعلى وجهها علامات التهكم « عساي أفهم . . من يدري ؟ »

وإن أكدت أني أفهم شيئا واحدا من تلك الآراء فهي أن معظمها فاشل ولن يسير بالعالم إلى الكمال والفضيلة »

قال في دهشة « لماذا ! ؟ » فأجابته « لأن جميع الأسس الأخلاقية التي تولد من تلك الافتراضات ، تخالف طبيعة البشر أولا وتحاول انتزاع أسسا أخرى متينة متأصلة في النفوس ثانيا . وكفى دليلا على فشل تلك النظريات في توجيه العالم إلى الخير ، أنها متعددة وكثيرة لا يستطيع أحدها أن يقوم على رجليه فيطمس الآخرين ، أو يسير فيؤمن به الجميع » . وقال على الأثر « الوقت كفيل بتحقيق ما تبغيه » قالت « ولكن الأدلة المحسوسة والتجارب القائمة على تلك النظريات لا تنبئ بأي خير أو نجاح ، وإلا لماذا فعل الشيوعيون بفلسفتهم ؟ وماذا استفاد العالم منهم حين اتبعوا كارل ماركس وغالوا في تطبيق آرائه ؟ إنهم يواصلون في السنين الأخيرة الرجوع على أعقابهم تدريجيا ، والتنحي عن بعض مغالاتهم .. لماذا ؟ لأنهم تناسوا النفس البشرية وأهم عناصر تكوينها ، ووضعوا المادة نصب عينهم ، واللذات المطلقة مطمح أنظارهم . وإلا فقل بالله عليك كيف تتناسى أثر عاطفتي الأمومة والأبوة في تكوين الطفل ؟ إنهم تناسوها ، وانتزعوها في قوة وإجحاف فاحش من الأطفال . فيشب الطفل لا يعرف له أبا ولا

أما ويميش حياته منغصا يشعر تماما بشيء ينقصه ، وهو حنان أمه وعطف أبيه . ولن يفارقه هذا الشعور أيام حياته .. طفلا وصييا وشابا ورجلا وكهلا ، لأنه ليس شعورا عرضيا يمكن التغلب عليه ، بل هو حاجة ماسة لا سبيل إلى دفعها لشدة ارتباطها بالنفس . والنفس كما تعلم أهم أجزاء الوجود الأنسانى .. وما دامت تعوز النفس أشياء لازمة لها فمن المرجح جدا ومن المحقول أيضا أن تحاول سد هذا النقص .. وما دامت القوة الغشومة تحول بينها وبين هذا .. فلا أسهل من أن تتحول هذه الجهود فى سد هذا النقص جهودا فى الانتقام ممن حرموها حقا طبعيا . وهكذا لا يستغرب أن تصبح الأطفال الذين تربيهم هذه البيئة رجالا تفعم نفوسهم بالشروع والحقد على الإنسانية التى لم تنصفهم فقال الكاتب كأنما يريد التظاهر بعدم المبالاة « هيه . وماذا أيضا ؟ » فأحابه الريفية بقولها « هذا شر واحد من شرور أصحاب هذه الفلسفة . وإن شئت لقلت لك فى تأكيد حازم أنه إن لم تحتط الإنسانية نفسها من هذا النوع من أنواع الحكم الأجرامى ، وتناهضه بقوة فسيأتى اليوم - إن آجلا وإن عاجلا - الذى تطنى على العالم فيه السنة للهب الشيوعى الذى لا يرى الا القسوة والعنف سيلا الى تحقيق مطمحه .. ومع ذلك فما لنا ولهذا ؟ سأسألك سؤالا واحدا تجيب عنه

بنعم أو لا — هل تنكر غريزة الجنس وبما يترتب عليها من حب ؟
قال « كلا »

قالت ضاحكة « قلت لك أن تجيب بنعم أو لا ولم أقل أجبن بكلا
فضحك وقال « إذن لك ما تشائين .. لا »

فقالت الريفية « ما دمت لا تنكر أثر هذا الحب ، فلن ترضيك حالة
الزواج التي استنها الشيوعيون »

قال « إنها أوفق حالة لتحقيق غريزة الجنس التي أوافق عليها وترضني ،
فليس عندهم أسهل من أن يتزوج الإنسان حبيبته ، فيرضى غريزته ،
ثم إذا ما اعتلت الحالة بينهما وأصبح لا سبيل إلى الوفاق ، فلا أسهل
أيضا من الطلاق »

قالت « وما الفرق بين تلك الحال وحال الوحوش الضارية ؟ إنها
(الوحوش) لا تبغى إلا إرضاء الغريزة في دقائق معدودة ، ثم
يذهب كل في طريقه كأن شيئا لم يكن . وإن تمايز الشيوعيون عن
ذلك في شيء ، فأنما هو أن مدة إرضاء تلك الغريزة قد تطول ، فتصبح
ساعات أو أياما أو شهورا . أينت إذن الفضيلة وأين سمو المثل العليا ؟
كلها معدومة مادام الإنسان قد رضى لنفسه أن يتناسى الأحقاب
الطويلة ، والقرون العديدة التي قضاها في مدينت تبعده عن حياة

الحيوانات قدر المستطاع ! وعلاوة على ذلك فقد فقد الإنسان — نتيجة لمثل تلك الحالة — الاطمئنان وراحة البال والهدوء البقي . فان يتفرغ شخص إلى عمله فقط يتقنه ويزيد في نمو ونفعه ، بل سيقرن عمله الخارجى دائماً بعمل آخر ، يستلزمه إرضاء هذه الغريزة ، وهو فى مصنعه ومتجره ووظيفته يفكر ويفكر ، ويضيع أكثر وقته فى التفكير هل يطلق تلك ويتزوج هذه ! أم يحاول إيقاع امرأة فى حبائله ويرغم من تحبه على الطلاق ! . ولا يخفى ما فى هذا من وحشية شاذة عقيمة ، وتفكير جنسى يعطل الأعمال كما يضر بالصحة . »

ولم يسع الكاتب الا أن يقول متهرباً « دعك من كل هذا ، فانك تعيشين فى عالم خيال وأوهام . وأغلب ظنى أن ستصين على دينهم أيضاً جام غضبك ! لكنى أحب أن أسمع فهاى ما عندك لأن كلامك يسرنى ويسرى عن نفسى . »

فابتسمت ريفيتنا حين قالت « إن كنت تسر لكلامى فذلك بالرغم منك . لأن هذا الكلام يثير فى نفسك انفعالات وإحساسات كنت تكبتها وتحاول إخادها . أما إنى سأصعب جام غضبى على دينهم لهذا صحيح . لأنى لا يسعنى إلا أن أضحك من قوم يعبدون الدولة ! ومع أنى لا أنكر ما للوطن على بنيه من حقوق وواجبات حقيقة

بكل حب وتقدير ، واحترام وتضحية ، إلا أن هذا الوطن ليس كل شيء في حياة الإنسان . فما سمعت إنسانا ادعى أن وطنه قد خلقه ، اللهم إلا إذا استعمل كلمة الخلق بصفة مجازية . كما أن الحياة في الوطن ليست كل ما يتطلبه شخص له ذرة من التفكير . لأنه إن فعل أنكر حياة الآخرة ، وأصبحت الحياة الدنيا هواً وعبثاً لا مبرر لهما . وعلى هذا فأى الأمرين أحق بالعبادة والتقديس : الله الذى خلقنا وتتوق نفوسنا الى عالم النعيم والسعادة الذى وعدنا به ؟ أم الوطن الذى ربانا وهياً لنا العيش بين ربوعه ؟ أظنها بداهة أن نعبد الله وندين بوجوده الأزلى ! والفرق بين الاثنين واضح لا يحتاج إلى برهان .

فقال الكاتب بعد أن خاف طغيانها عليه « أوه . كفى هذا ، فان

بجال نقد الشيوعيين واسع ، كما أن السخط عليهم لا تخلو منه جهة

فكفى عنهم وحاولى إن استطعت هدم نظريات أخرى »

فقالت وهى تضحك « هون عليك . ليتك طلبت شيئاً عسيراً !

أظننت أنك حصرتنى الآن بين الماء والنار كلاهما مهلك ؟ كذب

ظنك . ماذا جنى العالم من نظرية نيتشه أو كما تقول نظرية (البقاء

الأصلح) ؟ لقد دفع الألمان الى الأخذ بها . وملاهم الغرور بأنفسهم

حتى اعتقدوا أنهم أصلح شعب للبقاء ، وأنهم يجب أن يسودوا العالم

فإذا كانت النتيجة ؟ كانت أن استعرت حرب كبرى ، أو مجزرة كبرى أو طاعون مكتسح أو سمها كما شئت حرب سنة ١٩١٤ . وكان أن أزهقت أرواح الملايين ، وكان أن عطلت الأعمال ، وكان أن تحكمت الأزيمة بالعالم بعد الحرب حتى لتوشك تلك الأزيمة أن تجرنا إلى حرب أخرى ، أساسها المجاعة وعدتها أشد فتكا وأفزع تدميرا . هذا بعض ما كان من أمر الاندفاع وراء (البقاء للأصلح) علاوة على ما في تلك النظرية من نقص خلقى شنيع ، يحرم التضحية ويشوه المحبة ويقتل الشفقة وينهيب بكل عاطفة نبيلة . حتى ليخيل الى أن من يمارس هذا الرأى السقيم ويؤمن به ، فلا فرق بينه وبين قبائل نيام نيام . فهو لاء يأكلون مرضاهم وأولئك يقصفون ما يسمونهم ضعافهم وإن كان هناك فارق بين القومين فهو أن البيض يأكلون بالشوكه والسكينة حين يأكل الآخرون بأصابعهم لحوما نيئة . أو أن البيض يرتدون الملابس والسود لا يرتدونها !

ولما رأى الكاتب أنها انطلقت بنفس القوة التي هاجمت بها الشيوعيون صاحب فيها قائلا « كفى .. كفى .. أظننا قد وصلنا الى البركة (ثم أشار) أليست هذه بركة قارون ؟ »

والتفتت الفتيات الثلاث والكاتب . فرأوا البحيرة هادئة ساكنة

لا يبدووا على سطحها الا بضعة قوارب متناثرة . تلوح على أبعاد مختلفة
وكاد الوقت أن يكون ظهيرة . ففضل أصحابنا أن يستريحوا على
الشاطئ قليلا ثم يتناولوا طعامهم . وترجلوا عن حميرهم يتبادلون
أحاديث عادية ويتفياون ظل شجرة باسقة حتى ألح عليهم الجوع .
فمالوا على الآنية والحقائب يستخرجون ما بها من طعام شهى . وداعبهم
الطعام وداعبوه حتى أتوا عليه معتدين ! وما كان لهم من حيلة وقد
قيل إن الجوع كافر ! وكذلك قيل إن المعدة ملحة ! ولكن ما ذنب
الطعام المسكين في كفر الجوع وإلحاح المعدة ؟ قيل والعهدة على الراوى ،
أن الطعام يرى في دخوله المعدة أكبر حظ من حياته . كما يرى الحجاج
في دخول الحرم أكبر حظ من حياتهم . .

ما علينا . فان المهم أنهم أكلوا ، لكنهم لم يستطيعوا الشرب من
البركة لأنها مالحة ! لكنهم لم يعدموا ماء يرويههم من (زمزمياتهم
الاحتياطية) وهكذا أنقذهم الله من شر وقوف اللقمة في الحلق !
وناموا في الهواء البليل زهاء الساعتين ، تحت الغمام الخفيف المتناثر في
السما الذي لطف من حرارة الشمس كثيرا . كما كان يخفى أشعتها في
سيره ويديها كأنهما في دعابة حلوة مستمراة .

واستأجروا قاربا يتنزهون به على سطح البركة الراكدة ، لتروج

النفس واجتلاء المناظر الأخاذة من تكوين الطبيعة . وبدا للزنجية أن تسأل الريفية فقالت « أليست هناك إذن فلسفة تستطيع أن تجتذب غالبية البشر وتسيرهم نحو السعادة ؟ »

فأجابتها الريفية وهى تميل بالدفة الى قلب البركة « لك من أصول الإسلام خير فلسفة تقود العالم الى هداه ، وتودى بجميع آفات المجتمع ، فضحك الكاتب وقال « لقد كان إذن على الناس أن يأخذوا الإسلام دون قيد ! يافتانى انه شىء قديم لا يصلح لروح العصر »

قالت الريفية تسخر منه « أما ان الإسلام قديم فهذا صحيح ، وأما أنه لا يصلح لروح العصر فهذا كلام يستحيل إقامة الدليل عليه .. » فقاطعتها قائلاً « أيسبح الإسلام للعلم مثلاً أن يسير فى طريقه دون حرج ؟ » فأجابته « تلاحقه » لا أظن أن هناك ديناً يتاخى مع العلم تماماً أكثر من الإسلام ، بل هو — أكثر من ذلك — يستحث البشر أن يتفكروا فيما يبدو لهم من مسائل ، ويتبصروا فيما حولهم من كائنات ومعضلات ، إنما يحرم الإسلام أن يفضل العلم على أثر عجز العقل عن تصور الغيبات . فتكون النتيجة شركاً بالله . لذا يجب على المتفكر أن يكون عالماً راسخاً نزيهاً يمشى فى خطواته بحذر ، فان خاف السقوط فلا أسهل من أن يحجم »

وهنا انطلق الماء وأخذ القارب يهوى في عمق كبير . ولم تعد الهوة
ثانيتين بدتا للأربعة كأنها شهرا كاملا . واستقر القارب بهم على زهرة
كبيرة بيضاء تشبه في صورة مكبرة زهرة اللوتس . وقد قامت على
حواف الزهرة حوائط من الخشب البني يلمع لمعانا غريبا . ولما تابع
أربعتنا هذه الحوائط يصرهم إلى أعلى ، رأوا كأن رافعة أهبطت
ذراعها في رفق ، وأمسكت بالقارب ورفعتهم إلى ثلث الحائط تقريبا
حيث انفتح باب جميل خرجت منه لوحة خشبية ناصعة ، عليها
ماء كثير هبط عليها القارب وسار بهم وسط حدائق غناء . حتى وصل
إلى فسقية مرمرية لينة ، وقفت عليها ثلاث حسان يتساقط الماء من
أناملهن أبيض كاللبن ، ، وله رائحة المسك . ورأوا على سطح ماء الفسقية
مناظر طبيعية في منتهى الجمال ترسم وتختفى ؛ وهي مناظر لجميع
الكائنات المعروفة وأخرى غير معروفة . واستقر الحال هنيئة . ثم ظهر
على سطح الفسقية لوحة من مخمل أخضر كتب عليها الآيات الآتية
بالذهب الخالص :

« أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من
فروج والارض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج
بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب »

واختفت تلك اللوحة وحل محلها لوحة أخرى حملها نوع من الكائنات أقرب شبيهاً بالملائكة ، وقد كتب عليها الآيات « أفلا ينظرون إلى الأبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت فذكر إنما أنت مذكر »

وكان شيئاً من هذا لم يحدث ، ورأوا أنفسهم على سطح البركة في قاربهم يحدفون ، فابتسمت الريفية ابتسامة غر وابتصار ثم قالت للكاتب « هلا رأيت .. جمع الله في آية واحدة بسيطة ، بضع كلمات معظم علومكم . علم الحيوان والنبات والجغرافيا والفلك والجيولوجيا وغيرها . ثم لم يكتف بذلك . فحث الانسان صراحة لأن ينظر ويتبصر ويتفكر ، وهز الكاتب رأسه أسى وكداً لأنه فشل هذه المرة في المغالطة .

وقالت الزنجية تتسائل « هذا كله جميل . بقى أن نعلم عن تشريع الإسلام ؟ »

فأجابتها الريفية « تعلمين أن أهم آفات البشر الآن هي التسول والعمال العاطلين واللصوصية فلو أن القوم انتهوا إلى تشريع القرآن في مسألة الزكاة ، لكان عنصراً هاماً في هداية البشر إلى حلول معقولة

فعالة . وقد استنتت فعلا بعض الحكومات شيئا من هذا القبيل ، بان فرضت الضرائب على الدخل . وهذه أيضا المذاهب الاشتراكية ونقابات عمالها تسير على شيء مشابه فتأخذ للعاطل من القادر ! وإنى لأعتقد أنه لو سادت القناعة وحلت محل الشره الى المال في النفوس ثم سار العالم على مسألة الزكاة ، وتنبه لحكمتها ، لقطع الناس شوطا كبيرا في سبيل السعادة البشرية . ولم تقع عينك على متسول أو طالب قوت أو لص ؟

فقلت الزنجية « أمثل هذه الزكاة يأمر الله ؟ هذا جدير بكل عناية وتقدير . »

ثم قالت الريفية « وباكثر من هذا يأمر الله ! فهناك سؤال بسيط هل تستطيعين تمييز اللص أو النشال في هذه الأيام عن الشخص المحترم ، أجابت الزنجية « كلا . . فان كلاهما يلبس أحسن الثياب ويرتاد أكبر الأماكن ويركب أنغر العربات وكأنه مليونير عظيم »

فقلت الريفية « حسنا ! ومن المرجح أن يكون مثل هذا الشخص قد حكم عليه عدة مرات فلم يرتدع . لماذا ؟ لأن العقوبة لم تكن رادعة كما لم تؤسس على علاج النفس . ولو أن مثل هذا الشخص قد قطعت يده أول مرة ثم قطعت الثانية في المرة الثانية كما أمر الله ، لأمكن

الإنسان أن يفرق بين الباشا واللص بهذه العاهة الجسمية الظاهرة !
ولكان للمجرم - في احتقار الناس له ومجانبتهم إياه - خير رادع نفسى
وأكبر جزاء يسلمه إلى الندم فالتوبة .. كذلك هناك أمر مشابه فى حكمه
وهو رجم الزانى والزانية . فأن مجرد هذا الرجم أمام الملا عظة لغيرهما
وأى عظة ، وإصلاح لنفسيهما وأى إصلاح . ولكانت راحة العالم من
وراء انعدام البغايا لا تقدر : فلا أمراض ولا مصروفات تثقل كاهل الدولة
ولا نسل ضعيف ولا أزمات زواج ولا .. إلى آخره . هذا يا عزيزتى
قليل من كثير فى تشريع القرآن . هذا التشريع النافع والعلاج الناجع
ولا غرو فليس أحق من خالق البشر كى يشرع لهم . هو الذى جعل
النفس ويعرف مدى رعوته كما يعرف كيف يحكمها ! لا شك أن
تشريعه يكون أوفق تشريع وأكثره ثباتا ونفعا !

وهنا صاحت الزنجية « لقد وجدت الله . قد اهتديت إليه .. كفى
فسبحان من خلقنا ! »

وتبعته البيضاء تقول « لقد عرفت الله أكثر من ذى قبل وقد
اهتديت هداية كبرى . فسبحان من خلقنا ومن سيبعثنا من جديد ! »
ولم يسع الكاتب إلا أن يشير بالرجوع إلى المنزل إذ كان لا يزال

في جمعبته سهم آخر وعد الريفية أن يوافيها به مساء . وأفلوا راجعين مع الغروب . ووصلوا الى جامع صغير بالقرية عند خروج الناس من صلاة المغرب . وشاهدوا هذا المنظر الساذج الرائع في هذا الوقت الجميل الفاتن . فقالت الزنجية تشير على المصلين

« ما أجمل هذا التآخي والخشوع ! إنه لعمرى كفيل بأن يحل المحبة بين البشر محل النفور والجشع . وبأن يزرع التواضع ويقتلع الوحشة والكبر . فيساعد الأخ أخيه ولا يرد حاجة لذويه »

وأبدت الزنجية رغبتها في الصلاة . فلم يلبث أصحابنا بالمنزل أكثر من نصف ساعة تعلمت فيها الزنجية الوضوء والصلاة ، حتى كان العشاء قد جهز فجلس الجميع يتناولونه بشهية حلوة . وشكى الكاتب مغمصا بعد الأكل فأرادت الريفية أن تسليه . وطلبت إلى أبيها أن يحضر أحد مشهورى القرية في إلقاء المقطوعات والمواويل فحضر . وجلس مع الأب وبعض الضيوف في الطابق الأسفل . وسمعه أصحابنا ينشد من الطابق الأعلى . وكان الفتى رخيم الصوت قد قهره حب ساذج قوى ، ففتت قلبه تطعا يصوغ منها لآلىء مواويله . كما هي عادة الفلاحين وهكذا أخذ أصحابنا يسمعون في هدوء الليل حتى غلبهم نعاس لذيذ فناموا في أماكنهم .

« ٦ »

وقيل إنه مسجد نفخ ، وقيل بل رياض غناء للأطفال ، وقيل بل مدرسة نظيفة عصرية تبعت القواعد الصحية في بنائها ، والحق أن هذا جميعا صحيح

فتحن الآن في سنة ١٩٤٠ . ولا ندرى ما الذى جعل أصحابنا الأربعة يشعرون أنهم في هذه السنة من القرن العشرين ، ما بين ارتقاء الجفن وارتداده ؟ أمى معجزة ، أو سائحة من التفكير ، أو شاردة من الخيال يعبرون عنها بحلم اليقظة ؟ أغلب الظن أنها الأخيرة هى التى جعلت أصحابنا يشعرون أنهم في سنة ١٩٤٠ . وهى التى سبحت بكيانهم الى هذه السنة البعيدة . وهى التى خيلت اليهم أن وزارة الأوقاف قد نفضت عنها غبار التكاسل ، وهبت الى المساجد تصلح من شأنها وتزودها بكل حديث نافع ، جذاب محبب . فجعلت حول كل مسجد مهم حقائق جميلة يرتع فيها الأطفال ، وجعلت لهؤلاء الأطفال مربيات يعنون بنظافتهم . وألحقت بكل مسجد كبير مدرسة من نوع رياض الأطفال ، جعلت فيها مربين ومربيات يلقنون أطفالنا أصول العلم والدين . وأقامت فى كل مسجد آلة للراديو ، تستقبل إذاعتها من الأزهر

حيث يؤذن كل ذى صوت جميل ، وحيث تذايع الأناشيد الدينية والقومية الدقيقة التلحين .

وشعر أصحابنا الأربعة أنهم وصلوا الى هذا المسجد قبيل صلاة الجمعة . فما هى الا لحظة حتى هرع الناس أجمعين الى الداخل ، رجالا وأطفالا . وذهبت النساء الى مكان من المسجد خصص لهن . وأقيمت الصلاة فصلت الريفية والزنجية والبيضاء . وصلى الكاتب على مضض ! وبعد الانتهاء خرج الناس أفواجا متآلفات ، يسلم بعضهم على البعض متمنيا أن يجمعه الله وغيره فى الحرم . وعجب الكاتب من هذا التآلف والترابط اللطيف فى الشعور بين المصلين ، وهم من جميع الطبقات . ولم يسعه إلا أن يعجب فلم يكن له حيلة أمام هذا المظهر الرائع سوى العجب . وسار الأربعة الى مكان جميل من حديقة المسجد ، فسمعت الريفية الكاتب يتمتم

[إن الكتابة نافعة .. فقد أوحى الى أن أكتب كثيرا من الفصول تتضمن كلام الله عز وجل . لكن هناك ناسا فى هذا العالم لا يمكن أن تتوقع أن الله يشغل نفسه بهم . لأن كلمته عندهم لاشئ : وعلى هذا فان الوحي تخذلنى عند مجابهة هؤلاء القوم . ومن ثم أعتمد على سرعة خاطرى الشخصية . فأكتب لهم القصص المفزعة عن يوم

الحساب وعن الجحيم الذى سيصلاه العاصون الى الأبد . وبجساب
هذا فأنى أقابل هذه الصور المربعة بصور خلافة عن الجنة التى وعد
بها المؤمنون . مثل الجنة التى تغريهم . أفاهم أنت ؟ جنة ذات حدائق
وعطور ونساء جميلات]

وعند ما وصل الكاتب الى هذا سأله الريفية فى دهشة : ماذا
تقول ؟ ما هذا الذى تشتم به ؟

قال وقد أفاق الى نفسه « هذا ما قاله العربى الجميل للحاوى عند
ما قال له الحاوى أن رسالته رسالة كلام لا كتابة .. وقد سمعت
الزنجية هذا الكلام فى إحدى مخاطراتها . »

فقلت الريفية على الفور « ألا زلت تقول الحاوى ؟ يا شيخ اتق
الله . إنك أنخبت من رأيت . ثم كيف تزعم على العربى أنه يكتب ؟
وبأى دليل تفتري عليه تأليف القصص . أغلب ظنى أنك الوحيد
الذى قلت أن محمدا يقرأ ويكتب فى حين أن العالم أجمع وتواتر الأخبار
التاريخية الصحيحة لا تقبل الشك فى أن محمدا كان أميا .. ثم إن هناك
أمورا يجب أن تعرفها معرفتك بربط الكرافته . وهى أن محمدا العربى
لم يقل قط أنه اخترع حرفا واحدا مما نزل عليه وحيا . وإلا فها
دليلك كما أنه مما لا يقبله عقل ان يكتب امرؤ شيئا — إن استطاع

الكتابة — ثم يعزوه الى غيره ، والا لكان ملاكا في التضحية ! ومحمد
كما يعلم الجميع لم يكن سوى إنسان . هب أن برنارد شو كتب قصة كما
يفعل دائما فهل تعقل أنه ينشرها أو يسمح بنشرها خالية من اسمه
علاوة على وضع اسم غيره عليها ؟

وهنا شفق الكاتب شهقة عميقة وقال بلهفة « آه كيف يكون هذا ؟
هذا مستحيل . ومعناه ، إن حدث ، ضياع المال الكثير والاسم الكبير
والعظمة التي تتمتع بها ! »

فهدأته الريفية بابتسامة وقالت « لا تخف . لا تخف لن يحدث مثل
وإنما كان على سبيل التشبيه . والآن فكيف بمحمد يكتب شيئا ثم ينسبه
إلى غيره . خارقا جميع قوانين النفس البشرية الطماعة ؟ قد اتفقنا على أن
ذلك غير معقول بالمرّة . علاوة على أن ما أوحى به الله له من القرآن
لا يزال إلى الآن معجزة اللغة العربية . فان كنت تفهم العربية لظهر لك
صدق ما أقول . ولظهر لك أيضا أنه ما من بشر ينطق بلغة الضاد
طوال هذه السنين الألف وثلاثمائة وإثنين وخمسين ، استطاع أن
يكتب آية واحدة من آياته أو يحىء بمثلها أو أقل منها قليلا . فلو أن
محمد هو الذي وضع القرآن لا يمكن للكثير من البشر في السنين
المتعاقبة ، أن يأتوا بمثل إعجاز هذا الذي تزعم أن محمد قد ألفه . فان

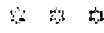
العبقريّة لم تعد من العالم . ولم يختص بها محمد وحده إن كان زعمك هذا حقاً . والدليل أن عندكم الكثير أمثال شكسبير بل الكثير من هم أحسن من شكسبير . كما عندكم الكثير بل الكثيره الممقوتة من أمثال برناردشو . وليس عندنا الكثير أمثال محمد . وليس عندنا سوى محمد واحد . لماذا ؟ لأن محمدا لم يكتب شيئاً من عندياته . ولو كان قد فعل لكان عندنا الكثير من أمثال محمد ! فلا بد إذن من أن هناك شيئاً خارقاً ، شيئاً فوق طاقة البشر ، شيئاً موحى به ، شيئاً معجزاً ! »

وقال الكاتب على الأثر « إنى لأعرف لغة العرب فمعدرة . ولكن هناك ما يدعو إلى أن يعيش الناس دون إيمان بالله أو بدين ما ما المانع ؟ »

فأجابته قائلة « سل نفسك وانت حزين أو مهموم ، سلها ما الذى تطمئن اليه فى هذا الوقت ؟ إنها لاشك سوف تطمئن إلى عقيدة ثابتة إلى إيمان بشيء تجله وتقده ، إلى قوة تحن اليها ولا تبغى عنها حولا . وليس من ينكر هذا الاستقرار والشره النفسانى إلى الايمان . فان الايمان شىء فطرى جبلت عليه النفس البشرية وصيغ معها كتلة واحدة والا فالنفس ثائرة ، والنفس حيرى ، والنفس غير مستقرة ، والنفس مستقرزة ! لأن الايمان شىء مكمل لحياة النفس ، هو خلجة قوية

مكملة لحياتها ، ومظهر رائع من مظاهر الحياة الروحية . علاوة على أن الايمان قديم جدا عرفته الأجيال جميعها . فمن مؤمن بصنم الى مؤمن بالشمس الى مؤمن بالقمر الى مؤمن بالكواكب وهكذا . وفي عصرنا الحديث تجد المؤمن بالعلم بجانب المؤمن بالله . وما دام هذا النزوع من النفس الى الايمان بشيء ، وما دام هذا الطيران الى التمسك بعقيدة والاطمئنان الى قوة ، فمن باب أولى أن يؤمن الانسان بالقوة التي ليس بعدها قوة ولا قبلها قوة ، ومن البديهي أن يعتقد الانسان في أكبر ما في الوجود وأعظمها وأجلها . ومن أكبر من الله وأجل وأعظم ؟ الله الذي خلق الجميع ، وأوجد الكل . لا بد أن ندين بوجوده ونعبده ونقدسّه . لأنه هو الذي خلق النفس . وخلق النفس وخلق فيها هذا الحنين الملح الى الاطمئنان الى دين . فبداية أن يكون هذا الدين هو وجود الله والاعتراف برسله والعمل على تنفيذ أوامره . هذا هو أقوى الايمان وأشدّه اتصالاً بالنفس ، وأكثره رحمة بها وراحة لها .

وهز الكاتب رأسه علامة الرضى . وقام مع الفتيات الثلاث الى غدير صغير يجري في حديقة المسجد . يسرحون الطرف فيه ، فيجتلى منه أروح الجمال العلوى للنفس ، وألذه للعين ...



وانتهى الحلم الجميل ، وانكشف خيال أصحابنا داخل دائرة من التفكير الصحيح فيما ذهب اليه الخيال . ثم شعر الجميع أن ما حدث قد ملك عليهم مشاعرهم ، لأنه كان في أذهانهم أقرب الى الحقيقة منه الى الحلم .

ورأوا أنفسهم في حجرة الطعام حيث تناولوا العشاء في نفس الليلة من سنة ١٩٣٣ وكان الكاتب مشغلا بسيكارتة ، فوجد أنها لا تزال ترعى . وارتج عليه الأمر ، وتملكته حيرة شديدة بين أن يصرخ ياأسا ، أو يتفكر في الأمر بأمعان . ولما كان الحديث الذي سمعه من الريفية اثناء تلك السنة من الحلم أقرب الى تصديقه ، وأبعد من أنكاره وأكبر من أن يكون وهما ، قام الكاتب الى غرفة مجاورة اختلى فيها بنفسه ليفكر في الأمر بامعان !

وبينما هو يفكر مرت على ذاكرته صور ناطقة متعاقبة ، لكل ما حدث منذ أن قابل هذه الريفية ، وتعاقبت عليه أيضا صور سريعة لكل ما لقيه مع تلميذته البيضاء وزوجه الزنجية . وأخذت هذه الصور جميعها تظهر ثم تختفى في درجات تختلف وضوحا وغموضا . وكان أكثرها وضوحا صور حوادث الريفية وكلمات الريفية ، وظن أنها

أكثرها وضوحا وجلاء لأنها كانت أقرب المخاطرات كلها الى ذاكرته سيما ولم يمر عليها أكثر من خمسة أيام ، بل لم ينته من آخرها إلا في نفس هذه الليلة ، وقبل هذا الوقت يضع دقائق فقط . ومن ثم أخذ يحاول دفع هذه الصور المسيطرة على حسه ، ويكد ذاكرته في أن تظهر له مخاطراته مع القتاتين الآخرتين ، أكثر إيناسا ووضوحا ، وأقل وحشة ونفورا . وكان له ما أراد بعض الشيء ، كما كان عليه أن يصدق شيئا . فكانت حيرة أخرى نحو أى الجانبين يميل .

ومال عقله إلى جانب الرفية بالرغم من كل الجهود التي بذلها كي يقصى عنه تأثيرها ، بل كي يسفه أقوالها أو يحدد بابا للمعارضة ، لكن شيئا من هذا لم يحدث . ولما كان قديمه عزيزا عليه ، وليس من السهل على أى إنسان أن يفقد أشياء بذل فيها مع قرنائته جهود الجبابة ، فان الكاتب لم يرد ان يطلق آراءه كلية بلا رجعة ، بل فضل ان يفكر فيها مرة أخرى اذا ما اتاحت الفرصة . وحيث لا يكون أثر لأقوال الرفية على نفسه ، هذا بالرغم مما لمخاطرتها معه من حظ كبير من تصديقه العقلي الزيه . ومن ثم دخل عليهن الحجرة وفي نيته أن يصلى . أما البيضاء فأنها عرفت الله أكثر من ذى قبل وكان لها من تصديقها الرفية خير معين دفعها الى احترام دينها الأول والاعتراف

بوجوده . حيث ان من انزل الدينين واحد .

وشعرت منذ اللحظة بشعور عميق لذيد . هو إطمئنان وهدوء ،
واستقرار وإيمان . وقد غمر هذا الشعور نفسها بفيض من الغبطة
الهنئية ، كما ملأ قلبها محبة لكل خير .

ولاذت الزنجية بالريفة تلح عليها في لفظة ان تلقنها الكثير ،
وتعلمها الكثير . إذ كانت جد شغوفة بدينها الجديد ، وتوصلها الى
معرفة الله معرفة صادقة لا تخالف طبيعتها في شيء . وكنت تراها
دائبة على الصلاة ، دائمة ذكر الله . وقد طفى على حياتها شعاع قوى
من نور أزاح عن الأشياء ما كانت تراه عليها من غموض ، وأفعم
قلبها إيناسا وراحة .

وجدلت ريفتنا واغتطبت . وراحت تشكر الله كثيرا كما ازداد
أملها في رحمته كثيرا . حتى اذا أضجى النهار شعرت بحركة غريبة في
المنزل . ولما استفسرت عن الأمر علمت ان أخاها الدكتور قد اتاهم
في زيارة قصيرة تتعلق بمسألة زواجها من شاب متعلم له من علمه
وكفاءته كل ثروته ، وله من طيبة سريرته كل مؤهلاته لديها . ولما
استشارها أبوها في الأمر ، يقول لها في تسليح ظريف ان المهر الذى

قدمه صغير ، لم تعر ذاك التفاتا .. وكل ما اشترطته هو ان ترى خطيبها شخصا .

وكان الأب عاقلا لا يرعى التقاليد القومية فيما يختص بمسألة المهر ، ولا يتبع سوى الدين الحنيف . وبعد يومين حضر الخطيب ، وفي نفس اليوم اكل مع خطيبته وأهلها وضيوفها . وبعد الغذاء عقد للعروسين ، وهنأهما الجميع . وسادت الغبطة الشديدة على الجميع . .

انتهى



مخاطرات الفتاة البيضاء في بحثها عن الله

بقلم

هــربرـت سـاريسـي مـا كـسـويل

ردا على برنارد شو

« ١ »

— « أين الله ؟ » هكذا سألت الفتاة البيضاء الكاتب المسرحي
(الدراماتيكي) الذي كثيرا ما كان يلقيها العلم في ظرف
فأجابها « سأريك إياه وسوف ترين أنه ليس أيضا موجودا
هناك »

كان الكاتب إيرلنديا متناقض الأفكار ، تحولت ذقنه الحمراء الى
البياض على أثر زواجه بالفتاة السوداء التي كانت تبحث عن الله في الغابة
وكان مغرما بالعزق في حديقة الفيلسوف . ولكنه كان أكثر غراما

ملاحظة : - رأيت بعد أن قارب الكتاب نهاية طبعه أن ألحق به
ترجمة حرفية لكتاب ما كسويل هذا إتماما للفائدة

بالوقوف على أم رأسه (بدل الوقوف على رجله كالعادة) أمام الناس وهذه الرغبة قد شرحها في لذة غريبة مستر بيربوم Beerbohm . فاذا سئل لماذا يفعل ذلك ، أجاب بأن ذلك الوضع صحيح حقا . وأن جميع الناس الآخرين اخطأوا حين يقفون على أرجلهم ! وقد يشير أيضا أن كثيرا من الناس كانوا على استعداد لأن يدفعوا مالا كثيرا كي يأتوا ويشاهدوه واقفا على أم رأسه ! وأنه ما كان ليفعل ذلك إذا كان مرتاحا الى الوقوف على الطريقة المثلى !

وفي مرة — لما وقف على رأسه وشرح كيف كان الناس عقلاء ورحيمين حين اتهموا فتاة صغيرة تدعى جوان Joan ، لما أحرقت حية — أعطاه كثير من الناس كمية كبيرة من المال ؛ لقد شرح ذلك جيدا . والأشياء التي قالها كانت حقا تستحق النقود التي دفعوها .

بعد ذلك بقليل أخذ تفاحة . وبعد أن وقف وقفته المحبوبة على تلك المصطبة الغريبة ، أخذ يشرح للناس أنه في حين أن الاشتراكية لا يشك أحد في أنها على حق ، وأن الملكية على باطل ، إلا أن الملك باستطاعته أن يكون حاكما اشتراكيا احسن من الاشتراكي المصوت له . ولقد أزعج هذا الكلام بعض أصدقائه الاشتراكيين الذين لم يزججوه مطلقا ولم يتعرضوا له . وخصوصا لما أعطاه أناس كثيرون

مبلغا كبيرا من المال على هذا الكلام !

وبعد هذا بقليل أيضا اتخذ الوقفة نفسها ليقول عن الناس والأشياء آراء بلغت من حقيقتها حدا أصبحت به جيدة !! ولقد سر هذا قليلا من الناس - لا كثيرا منهم - حتى سمى المجهود في هذه المرة ثابجا سريع الذوبان . وقد تكون هذه التسمية هي السبب في ارتحاله إلى أفريقيا حيث الحرارة كافية لنسيان الثلج . ولعلها أيضا السبب في العزم على الاستراحة من كتابة الروايات المسرحية الى كتابة القصة بدلا منها !

ولقد تعلمت الفتاة البيضاء كثيرا من الحقائق على يديه وأعجبت بالمهارة التي يناقش بها وبالأراء المستملحة التي قالها عن الناس الذين أراد إصلاحهم ! ولكنها تشككت في أن بعض الحقائق التي ذكرها قد كانت جيدة جدا حتى أصبحت من الجوده بحيث انقلبت حقيقة ! فسأله الفتاة مرة - « ولكن أليس وقوفك على أم رأسك عملا شاقا ؟ »

فكان رده عليها - « ولكن ما العمل وإن لم أفعل مت جوعا ؟ إلى حين أفعل ذلك أصير معروفا لدى الناس . وهذا يضمن لى طريقا رشيقا أعيش منه . إلى أقف على رأسي في حين أن بعض الفنانين

يبرزون أفكارى للناس عن طريق قلمهم ! والناس يعتبروننى مثلاً
أعلى لكتاب الدراما المتناقضين ويقولون ما أعجب هذا الرجل !
ولكننى لا أقبل دراهم وملاليم كالحاوى . لا . لا بد أن يدفعوا خمسة
عشر شلناً أو جنيتها للوقفة الواحدة . ونصف جنيه أو إثني عشر شلناً
وستة بنسات للملابس . إنهم يدفعون نقودهم ويضحكون على . نكاتى
ولكن قليلاً جداً منهم من يأخذ بنصيحتى الحسنة ، أو يصغى إلى
حقائقى الدرامية . إنهم يستمرن فى طريقهم جهلاء قاسين ضعيفي
النفوس وهذا يجعلنى أشعر أنى أرقى منهم . والمهم أنهم يدفعون لى
كثيراً من المال !!

وهكذا أخذت الفتاة البيضاء عصاتها وتبعت الكاتب إلى الغابة
يبحثان عن الله وأخذت أيضاً كتابها المقدس لكى تقارن نظرياته
البالية ومعتقداته بالحقيقة التى سوف يكشفها لها الكاتب . فأتيا مكاناً
حيث قابلت الزنجية المامبا فقال الكاتب

« بالقرب من هنا ستجدان إلهاماً مزيماً . سيغضب ويحرق إذا لم
تذبحى ابنك أمامه فى الحال كضحية ! لأنه يحب رائحة الدم الطازج
فاذا قلت أن ليس لك ولد . قال اذهبي وقتشى عن أهلك يذبحك أمامى !
.. فغضبت الفتاة كثيراً . وهيات عصاها جيداً استعداداً للمهاجمة هذا

الاله القاسى إذا مصادفته . وأوما إليها الكاتب أن تتبعه . وقادها إلى
كومة من الحجارة حيث جلس الاله الذى تحدث عنه على عرشه .
ولشد ما دهشت حين توسمت نظرة حزينة ورقة وحنانا تبدوا على
وجه الاله . وقتانا رقيقة العاطفة بالرغم من أنها شديدة اللسان .
فصعدت اليه تسأله عن سبب أحزانه فأجابها قائلاً :

« أنا محزون لأن عبيدى يقعون فى تلك الأغلاط المحزنة نحوى
ولأن هذه الأغلاط تجعلهم يعملون أعمالاً قاسية . فهم يريدون أن
يذبحوا أولادهم . والناس يتعلمون الأشياء ببطء . ولا يستطيعون
استساغته أكثر من نظرية واحدة فى وقت واحد . والآن سأعلمهم
أن الاله الحق لا يبغي مثل تلك الأفعال ،

ونظرت الفتاة البيضاء حولها . فوجدت عجوزاً آتياً نحوها
مسطحاً شاباً يحمل حزمة من الحطب . ويبدو الرجل سكين كبير قاطع
ولما اقتربا من الكومة الصخرية أخذ الرجل بضعة أحجار وعمل منها
فرنًا . ووضع الحطب فوقها ، ولجأه انقض الرجل على ولده فأوثقه
وأنامه على الحطب فسأله الفتاة

« ماذا أنت صانع ؟ » قال « أنى سأضحى ولدى الأوجد إسحق »
قال الرجل هذا ورفع السكين ليقطع بها حلقوم ابنه . حينئذ قال الله

« ابراهيم .. ابراهيم » فأجابه « ها أنذا » قال « لا تقرب يدك من الشاب . لا تفعل به شيئاً إني أعلم أنك تعنى بي أكثر من عنايتك بولدك ولكنى لا أرغب فى التضحية البشرية ، أنى أمنعها فاذا أردت أن تضحى فضحى على الكبش المسوك من قرنيه فى الغابة »

وبعد أن ذهب ابراهيم وإسحق قال الله

« الآن سيعلون أنى أرغب عن الآتيان بأولادهم وذبحهم كضحية أمامى . ولقد ظن إبراهيم أنى أردته أن يضحى ابنه . والآن عرف أنى لا أريد ذلك . ولما يتلقنوا هذا الدرس جيداً سأعلمهم أن ليست لى لذة فى تضحية الحيوان وأنى أحب الرحمة وإن أقصى ما يقدمونه لى إنما هو حياة الطاعة والإيمان والحب »

وعلى الأثر قالت الفتاة للكاتب « حسنا لقد كنت مخطئا فى زعمك فيه على أى الحالات » والآن فإن الكاتب الذى طالما علمها ، كان قد أخبرها أن تقطع الصفحات الأولى من الكتاب المقدس وترمىها فى مهب الريح . وقد قطعها فعلا ولكنها حفظتها معها . والآن فتحت الكتاب ووضعت الصحائف فى مكانها وقرأتها وكأنها قد فهمت معناها أحسن من ذى قبل !

« ٣ »

وهنا وعدّها الكاتب أن يريها إلها ما كراً عجوزاً يود لو يناقشها ،
وستظن فيه حقاً أنه أبله . فقادها إلى مكان فسيح في الغابة حيث
جلس الإله . فدهشت لما لاحظت الشبه القوي بينه وبين الإله السابق
ولما اقتربت منه وجدته هو هو الإله نفسه . ولا تزال النظرة المكتئبة
والرقق تبدوان على محياه « وتمكنت من رؤية لمحة لا بتسامة بهجة في
عينيه ، لم تكن قد لحظتها لما رآته على ربوة الصخور فسألته « لم لا تزال
محزوناً ألا يزال عبيدك يقتلون أولادهم في سبيل مرضاتك ؟ » فأجابها
« كلا فقد عرفوا هذا الدرس ولكنهم لا يزالون ، يفسد كل حياة
أخيه ، بل وحياته بالأغلاط التي يغلطونها . وسأعلمهم درساً آخر
سيساعدهم » فسألته « كيف ؟ » فأجاب

« بالطريقة التي تعلّمين بها الأطفال . سأقص عليهم قصة لأن
عبيدي لم ينضجوا بعد ، وهم يفهمون القصة أكثر من فهمهم لمقال
نظري . وسأفعل كصديقك هناك الذي كتب قصة في ثمان وخمسين
صحيفة ، ثم أشار إلى غرضه منها في ست عشرة صحيفة طبعها في آخر
الكتاب . ولو أنه في بعض الأحيان يكتب مسرحية في ثلاثين صحيفة

ويلحقها بمقال ذي خمس وسبعين صحيفة كمقدمة ، ولما قال هذا ابتسم للكاتب الذي وقف بالقرب ، في مظهر المتكبر . فلما رأى الكاتب الآله يضحك عليه ، اتخذ وقفته المحبوبة ، وأخذ يتكلم بسرعة وبطريقة مسلية وماهرة جدا للفتاة البيضاء ، فداعبته بضربة من عصاها قائلة أن يهدأ ، إذ كانت تود الأصغاء الى الله . فصاح في حالة تدعو الى الأشفاق ناسيا أنه متغطرسا « أنا الذى أهدأ ؟ أنا أهدأ حين تصغيين الى هذا الآله القديم المتكلم ، الذى يجيد المناقشة . أنا أريد أن أناقش وأشرح . إن أظفارى لكبيرة فى مسائل الشرح إني ... »

وكانت الضربة التى تلقاها هذه المرة أنفع جدا من الأولى ، بيد أنها لم تنالك من الضحك حين رأت الدهشة تعلو وجهه ، لما عرف أنها تريد أن تصغى لله بدلا منه . وظل الى وقت ما واقفا على رأسه يجهد نفسه فى الآتيان بأعمال تستلفت نظرها . ولكنها كانت متلذذة حقا الى ما يقول الله . ولم تسمع نكاته ولا تعليقاته فى بعض المناسبات وسألت الله « ما هى القصة التى ستقولها للناس ؟ » فقال الله « هى حول رجل يدعى چوب فان عيىدى يعتقدون أنه إذا حل شركبير برجل فانما يكون سبيه أن الرجل فاسد القلب وأنى غضبان عليه . وهذا كله خطأ وهذا يجعلهم قساة على المنكوبين أنفسهم ، وبائسين جدا حين

يلم بهم الخطيب أنفسهم . ففي قصتي سيكون جوب رجلا طيبا جدا ،
وسيلحق به كل مكروه ظاهر ، وليست أقل اضطرابات ما سوف
يناقش فيه من هذه الأمور الثلاثة : -

الأول أتى أعاقب ضعفاء النفوس بالخطوب . والثاني أن ليس
المصابون بالضعفاء . وأخيرا أنه مادام جوب مصابا فليس إذن فاسد
النفس . فإظهر أن جوب Job ليس فاسد الخلق . والذين سيصغون
إلى القصة سيعلون أنه في حين أن ضعف النفس لا يكون سببا في
الخطوب ، فانه لا تحل الخطوب دائما لأن صاحبها ضعيف النفس .

سيعرفون إذن أن يكونوا أكثر رحمة بالمصابين الذين يقاسون
وأشجع حين يعاونون هم أنفسهم . إنها نوع من القصة يمكن لصاحبك
- الذي يفعل كالبهلوانات - أن يكتب مثلها جيدا ، فقالت الفتاة البيضاء
« ولكنك لم تشرح لماذا توجد المعاناة في الدنيا على الإطلاق ؟ »
قال الآله « لا . إنك لا تستطيعين شرح نظرية أينشتاين في النسبية
للأطفال ، ولا للصبية ، حتى ولا للآولاد البالغين العقد السادس .
تستطيعين فقط ان تعلمهم الدروس التي يقدرون عليها . إنه كاف جداً
في هذا الوقت هذا الدرس . ان استطاع عبيدي ان يفهموا الدرس
الذي القيه عليهم في هذه القصة . وعليه يحفظون درسا واحدا في

وقت واحد (كل مرة درس) . والاجابة على سؤالك خارجة عن مداركهم . كما أن الاجابة التامة خارجة عن ادراكك في الوقت الحاضر وحتى عن إدراك صديقك المتناقض . ولكن استمر في التفكير فيها وبحشها ، وفي يوم ما سيوضح لك ما كنت تريه خلال منظار قائم »

ولما سمع الكاتب ان هناك أشياء خارجة عن حدود إدراكه دهش جدا حتى أنه أبطل الكلام . واعتدل في وقفته — أى وقف على رجليه — وابتدأ في الابتعاد ولحقته الفتاة وهي تفكر . ثم فتحت الكتاب المقدس وأرجعت ثلاثين صفحة أخرى الى مكانها كان قد طلب اليها الكاتب أن تقطعها وترميها جانبا . ثم قالت

« انى لا اعتقد ان الاله هو الشخص الأبله » فقال الكاتب

« أأست متسرعة فى حكمك هذا ؟ هذه الأفكار كلها قديمة . وشابة حديثة مثلك يجب أن يكون لديها الاستعداد لتمحيص النظريات الحديثة . ومستجدين فى الأفكار الحديثة أشياء أنفع من القديم بكثير وهذه نبوة رزينة قديمة تقول بعدم التفريط فى الماء القدر حتى يتاح لنا الماء النقى . وهى نبوة خطيرة إن لم تلاحظى أنه مادام ليس لديك الماء النقى فلا تلقى بالقدر . وتحذرين بدقة أن لاتدعى الماءين يمتزجان » فقالت الفتاة « إنى لا اعتقد أن الماء قدر . وعلاوة على ذلك فهناك مثل

آخر يقول إنه من الخطأ إلقاء الطفل مع ماء حمومه . ومع ذلك فانا لا نتكلم عن الماء ، إنا نتكلم عن الحقيقة . والحقيقة لا تتعفن مع اننا يجب أن نعلم عنها كثيرا . فائتين زائدا اثنين يساويان أربعة . سواء جمعهما نيوتن أو سير جيمس جاز . والجسم المغمور في الماء يعاني ضغطا أعلى يساوى وزن الماء الذي حل محله الجسم . سواء غطس أرشيدس في حمامه أو برنارد شو قد سبح في البحر الايض المتوسط ؟ » (وكانت جد نفورة لتذكرها الطبيعة التي حفظتها في المدرسة)

قال الكاتب « هذا حسن .. هذا حسن تعال معي فسأريك ناسبا ذوى نظريات حديثه » . وقبل أن يقطعوا ميلا أبعد ، قابلا مؤلفا يحمل كرة هائلة على كتفيه . فلما اقترب منهم عرفوا أنها شبيهة بالكرات التي تستعمل أحيانا في غرف التدريس وتسمى كرات ارضية . وصاح به الكاتب

« هالو ألدبوس Aldious ما ذا تحمل هناك ؟ » فأجاب المؤلف « إنها الدنيا الجديدة الشجاعة » . فاقتربت الفتاة من المؤلف وأخذت تدقق في الكرة . ورأت تماثيلا صغيرة كعدة الساعة تزحف فوقها ، ومنهمكة في أعمال ليست مسلية . ولما همت أن تسال المؤلف

لم تأت تلك القماثيل بهذه الأعمال الشائنة ، لاحظت مؤلفا ثانيا يقترّب حاملا فوق كتفيه عددا من العوالم الجديدة كل منها تختلف عن الأخرى وسمعت أيضا ضوءا غريبة كأنها صادرة من رأسه فسألت « ما هذه الضوء الغريبة ؟ » فأجاب الكاتب « أنه صوت مستر ويلز يغير رأيه . ألم يقل سير جيمس بارى الذى يسكن بجواره فى حى أدلفى بأن الحيطان كانت رقيقة إلى حد أنه كان يسمع - كل ليلة - المستر ويلز يغير رأيه . وكما غير رأيه مرة أتانا بدنيا جديدة ؟ »

وظهر مؤلف آخر يحمل بيتا كبيرا على ظهره . فسألت الفتاة « ما هذا المنزل ؟ » فأجابها المؤلف « إنه يسمى منزل الاخلاق الجديدة أدخلت وتفرجى عليه » فجابت الفتاة فى المنزل تنظر النوافذ والأبواب فاستطاعت أن ترى مطبخا كبيرا فيه بوفيه للكوكتيل ، وحجرة نوم ضئيلة جدا جدا ، فيها ولد لا يدل مظهره على سعادة فلما تطلعت اليه من النافذة حلق فيها لحظات ثم قال « هالو . ايتها الفتاة الكبيرة أنت أمى الجديدة » فأجابته « لا . لم تسال عن هذا أمات أمك ؟ » فأجاب « كلا . ولكنها ذهبت . واخبرنى آرثر ان أمى الجديدة ستأتى اليوم »

— من هو آرثر ؟ أهو أهلك ؟

— كلا إنه ليس ابى . إنه الرجل الذى يعيش معنا اخيراً

— وهل مات أبوك إذا ؟

— لا اعلم (وبدأ يصيح) ترين أنهم يتغيرون دائماً منذ بدأت

اذكر ، لدرجة اننى لا أعلم من هو . وهل لى أب أو لا ؟

وقال المؤلف الذى كان واقفا بجوارها « ستلاحظين ان الدنيا

حرية جديدة فى الأخلاق الجديدة ! فان النظريات العائلية القديمة

بقيودها ورجعيتها كانت تعتمد على اخلاق العبودية ، التى اقتلعتها

الآن وكانت جميعها لا تليق بالناس العقلاء المتعلمين . فانه ليس من

العدل للزوج او الزوجة ، ان يبقى كل منهما للآخر مدى حياتهما .

لقد غيرنا هذا كلية »

فأصرت الفتاة ترد عليه « وليس كذلك من الأنصاف للأولاد

التعسى الحظ ان يمتن الزواج فيصبح كالبوستة العمومية » ومن ثم

بدأت تصنى الى المحادثة التى تجرى فى حجرة الرقص . ولكن بعد

دقائق قليلة تحولتا وأسرعت الى الخارج وقالت « يخيل ان الاخلاق

الجديدة ما هى الا الرذائل القديمة » .

وأتى عدد كبيراً من المؤلفين يحملون عوالم جديدة شجاعة ، أو

بيوتاً للأخلاق الفاضلة الجديدة . وكانوا يتشاجرون ويتناقشون مع

بعضهم البعض فاحدثوا جلبة وضوضاء كثيرة حتى عزمت على أنها
لن تجد دنيا جديدة او اخلاقا جديدة او الها يساعدوا بينهم . فقالت
« إني لست راضية عن فكركم الجديد يا اصدقائي ، فان دنياكم الجديدة
الشجاعة تظهر لى عوالم فزعة جديدة . وبيوت اخلاقكم الجديدة
ليست بالبيوت التى أعنى بان أندمج فى مجتمعها » فقال الكاتب
« حسنا لا شأن لنا بهذا . ساريك الآن حاو هو رجل محبوب
وزيافته حسنة ولسوء الحظ قد حوله فساد الناس مجنونا »

فأتوا سريعا الى جب حيث وقفت لتشرب ولحاجة رأت رجلا لم
تكن قد لاحظته قبل ان تجلس بجوار الجب . وحين بدأت تغرف
قليلا من الماء بيدها قال « هذا الماء الذى ستشرب منه سينعش جسمك
الظمآن . ولكنك ستظأين ثانية . والماء الذى اعطيه ينعش الروح
وهؤلاء الذين يشربونه يطفأ ظمؤهم الروحي » فقالت
« هذا ما أريد لأن روحى متعطشة إلى معرفة الله الذى أبحث عنه
أأنت الحاوى الذى أخبرت عنه ؟ »

« لست حاويا فأنى . لما أرسلت لأهدى الناس إلى الله ، كان على
أن أختار طريقي . فكنت أستطيع أن أحملهم على فعل ما أخبرتهم
به بأن أحول لهم الحجر إلى خبزا ولكن إن كنت فعلت لأصبحت

فى نظرهـم المـمـون العـالـمـى لا الصـديـق المـنـقـذ . أو لـكـنـت أـتـيت بالمـعـجـزات المـدـهـشـة كـأن أسـبـح خـلـال . إـحـدى مـمـرات مـعـبـدهـم الضـيـقـة إـلى فـنـائـهم المـزـدحـم دـون أن يـلـحـقـنـى ضـرـر . ولـكـنـت أـدـهـشـتـهم بـقـوى المـعـجـزات إـلى حد أن أـجـلـهـم يـتـبـعـونـى وـهـم مـغـمـضـين . ولـكـن إـذا كـنـت فـعـلا فـعـلت هـذا ، لـكـنـت فى نظـرهـم أكـبـر حـاوى فى العـالـم لا الصـديـق المـنـقـذ . أو كـنـت حـكـمت مـمـالـك هـذه الدـنـيا ، وبـمـهـارة قـواـدى وقـوة جـيـوشـى كـنـت اضـطـرـهـم إـلى طـاعـتى طـاعـة عـمـياء . ولـكـنـى إـن كـنـت فـعـلت كـنـت فى نظـرهـم أكـبـر قـائـد حـربـى فى العـالـم لا الصـديـق المـنـقـذ . بـدـلا من هـذا عـزـمـت أن أـحـيا حـيـاة الله بـيـنـهـم : أـحـيا حـيـاة وـاحـد يـخـدم الآخـرين لـأنـه يـحـبـهـم ، ويـحـبـهـم لـأنـه يـحـب الله » فقـالـت الـفـتـاة البـيـضـاء .

« إـنـى أـبـحـث عـن الله . إـين هـو ؟ » فقـال

« هـو فى رـوحـك ، وفى صـمـيم صـديـقـك هـناك ، وفى صـمـيمـى أنا

ايـضـا ، فقـالـت

« إـنـى أـعـتـقـد هـذا ولـكـن من هـو ؟ » قال

« هـو أبـونا » فقـالـت

« إـنـى لا أـحـب أبـى . لـقـد كان مـشـغـولا فـقـط بـعـمـله وبلـعـبـة الجـولـف

ولـم يـعـن بـى قـط حـتى عـرف أنـى أـجـيد لـعـب الجـولـف لـدـرـجـة أن أغـلبـه .

وحتى وقتذاك أرادنى ان أتزوج شريكه فى العمل الذى كان رجلا
عجوزا قبيحا كائى . لا . إنى لا احب أبى فلم يكن ابا حقا .

فأجابها « إذا لم يكن ابا حقا فهو لم يكن كالله مطلقا ، فان كان
احسن أبوة ، فهو اقرب شها بالله . وإن كان ابا كفؤا فهو تماما كالله
والله هو أبونا الحق الكامل . وعملية الصلاة له كعملية سير الأطفال
إلى أبيهم . فحين تصلين قولى « أبانا » وحين تخافين تذكرى ان الله
(اباك) يعنى بك . وحين تطمعين فاعلمى ان اباك يعلم . وحين
تخطئين فأنت تبتعدين عن ابيك إلى بلد بعيد . ولكنه طوال الوقت
الذى أنت فيه فى هذا البلد الثانى ، فان اباك ينتظرك لترجعى ويقابلك
قبولا حسنا . وستكونين اجدر بان تسمى ابنته . فسيرحب بعودتك
وستجدين انه لا يزال أليك . نحن هنا فى الحياة لتنفيذ إرادة الله . وكما
قال أحد اتباعى « فى إرادته سلامتنا » ففى الحياة يجب ان نعى بشئون
الله . وحين نموت سنسلم ارواحنا بين يديه . وستجدين ان القبر انما
هو الباب الى بيت أبينا حيث يوجد كثير من الأبنية الضخمة » فقالت
الفتاة البيضاء

« إنى لم افكر فى الله بمثل هذا قط . لقد كنت اظنه دائما كنوع
من البوليس الغضبان . يراقبنى ويود لو يقبض على متلبسة بالخطأ

كى أعاقب . أليس الله يراقبنى دائماً ؟ » فأجابها
« نعم . الله دائماً يراك . كالأب المغمم بك الى محمد الا يتحول
بعينه عنك أبدا . فالله أبوك الكامل التام ! وهو الحب ! وما دام هو
الحب ، ونحن أولاده فيجب على كل منا ان يحب الآخر » فقالت
انى لا اريد ان أحب جميع الناس . بعض الناس يخيفون
يسرقون ويغشون وينشلون ويؤذون الناس . فيجب قتلهم ومحوهم
كالخشرات الضارة » فأجابها « كلا . لا يجب سحقهم ولكن يجب
علينا ان نغيرهم . والطريقة المثلى لتغيرهم هى ان نحبهم » فسألت
« أحب كل الناس ؟ » قال « نعم أحبهم لدرجة انى أموت من
أجلهم » قالت

« وهل يحبونك ؟ » قال

« بعضهم . والبعض الآخر يود لو يقتلنى » قالت

« وهل تقتلهم ؟ » قال « لا . ولم أقتلهم ؟ إنهم لا يعرفون ما ذا هم

فاغلون انى احبهم واستمر فى حبهم » قالت

« وهل هذا تشبها بالآله ؟ » قال « نعم الله هو الحب ! والحب

يعطى ويعطى ويستمر فى بذل العطاء » فاشتبك الكاتب معهم فى

المناقشة قائلاً

« لا . الحب يأخذ ويأخذ ويظل في أخذه . لما تحب امرأة رجلا أحبته حب اللبوة وأكلته ، وجعلته قطعة منها . ومن هذا الوقت فليس عليه ان يفكر فيما يسره ولكن فيما يسرها ! فهي تقف بينه وبين نفسه وبين الله فالحب شيء شره »

فسألت الفتاة البيضاء « وهل تأكل اللبوة بعلمها ؟ » فأجاب الكاتب « لا عليك بهذا فهو تشبيه فقط . المهم عندي ان الحب شيء يأخذ ويبلغ ويستولى . وهو ظلم فادح . هل تتصورين الجنة هي الحب ؟ فأجابه الذي سماه حاو « الحب هو الجنة والسعادة الأبدية ؟ ولكن ليس ما تسميه انت بالحب والشئ الذي يأخذ هو الشهوة الشرهة . والحب يعطى ولا يأخذ وهو يعنى الخدمة والبذل ، والحب يعطى والله يعطى ، والله يحب حتى يعطى . ولهذا اعيش عيشة الخدمة ، واضحى حياتى فى سبيل اصدقائى لأريهم ماذا يشبه الله . وأحزن للصداقة المهضومة بينهم وبين الله . احب لا اشتبهى ، اعطى لا آخذ ، اخدم ولا اخدم . هذه هى السعادة وهى الحياة وهى الآخرة الأبدية » ولما كان يتكلم كانت الفتاة البيضاء تحملق فيه بانتباه . وذكرتها تقاطيع وجهه وما ارتسم عليه من التعبير بالألوان الذى رآته على كومة الحجارة الذى اخبرها اخيرا بحكاية جوب ولكن الآن — والنظرة الحزينة والعطف باديان —

اختلط بهما نظرة سعيدة رحية أخذت بلبها ونظرت الى كتابها المقدس
الذى وقع مفتوحا على الحائط بجوارها وقرأت

(هذا الذى رآنى قد رأى الأب) . فالتفتت الى الكاتب وقالت

« جئنا لنبحث عن الله وقد وجدناه وكل ما أرغب هو أن أتبعه »

واستمرت تمشى مطرقة مكومة خلال الغابة . فقد تعلمت من

الرجل قرب البئر ما هو الله ، وتعلمت ايضا ماذا يجب ان تكون عليه

الحياة الانسانية والحب . وعلمت ان حياتها مخالفة تماما لحياة هذا

الرجل . وكانت جد مقتنعة حين بدأت رحلتها . ولكن منذ وقفتها مع

الرجل بجوار البئر عرفت أن حياتها ما كانت إلا حيدا عن الصواب

واعتقدت أن ما تشعر به الآن كان ما سماه الرجال القدماء « اقتناع

بالخطأ » ولعلمهم كانوا يقولون ان « الروح المقدس كان يقنعها

ويدافع عن نفسه » ومن ثم حملت على الاقتناع بأنهم كانوا على الصواب

تم

